

صَنَاعَةُ الْوَعِي



السِّيَّفُ  
بِرَمَّهِ  
ضَرُورَةٌ وَجُودِيَّةٌ

أحمد الخالصي



مَرْكَزُ بَرَاثَةِ الْإِدْرَاسَاتِ وَالْجُهُوتِ

Baratha Center for Studies and Research





■ السرية ضرورة وجودية  
أحمد الخالصي-

◆ رقم الطبعة: ◆ تاريخ الطبعة: ◆ مكان الطبعة:  
الأولى ٢٠٢٥ م - ١٤٤٧ هـ ◆ بيروت - بغداد

■ الآراء المطروحة لا تعبّر عن رأي المركز بالضرورة ■

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مَرْكُزُ بَرَاثَا لِلِّدَارَاسَاتِ وَالْجُوَثِ  
بِيرُوتَ - بَغْدَادَ

Baratha Center for Studies and Research

[www.barathacenter.com](http://www.barathacenter.com)

[barathacenter@gmail.com](mailto:barathacenter@gmail.com)

◆◇◇◇◇◆ **صِنَاعَةُ الْأَعْيُ** ◆◇◇◇◆

# السِّرِّ ضِرُورَةٌ وَجُودِيَّةٌ

---

• **أحمد الخالصي**  
باحث في الشأن السياسي



مَكَزُونْ بَرَاثَةِ الدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ  
بَيْرُوت - بَغْدَاد

# صِنَاعَةُ الْوَعِي

في عالم تتسرّع فيه الأحداث، وتتشابك فيه التحدّيات، صار الوعي شرطاً لازماً للبقاء الحرّ والمستقلّ. فالشباب اليوم يواجهون منظومة معقدة من الضغوط الذهنية، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها، تُمارس عليهم عبر الإعلام الموجّه، والتعليم الممسوخ، والمحتوى الرقمي المصمّم لاجتذاب العقل، ولتكيفه وإعادة تكوينه ضمن قوالب مهيمنة. ومع تنامي أدوات السيطرة الناعمة، باتت المعركة الحقيقة تدور في ميدان الإدراك: كيف نفكّر؟ وماذا نرفض؟ وما الذي نعدّ خطراً؟ ومن هو عدونا أصلًا؟

وفي هذا السياق، تُطرح قضايا خطيرة تلامس الأمان الثقافي، والاجتماعي، والسياسي: من تزييف الوعي باسم الحرية، إلى تسطيح المفاهيم باسم الحداثة، ومن اختراق المجتمعات عبر البيانات والإعلام، إلى تحديد الأفراد وتجريدهم من فاعليّتهم. كما أنَّ غياب ثقافة الوعي، والانجرار خلف الاستعراضات الرقمية، أسهما في إضعاف كثير من الحركات والعمل المقاوم.

من هنا، تطلق (سلسلة صناعة الوعي) التي يُصدرها (مركز براثا للدراسات والبحوث)، بوصفها استجابة معرفية لهذه التحدّيات. فالسلسلة مشروع عمليٌ لإنتاج دراسات تخاطب الشريحة الشبابية خاصةً، بهدف تحصين وعيها، وتعزيز مناعتتها الفكرية، وتأهيلها لفهم أعمق لطبيعة الصراع.

وتُركّز السلسلة على قضايا ملحة تمسَّ الوعي مباشرة، كالحروب النفسية، وأدوات التضليل والإقناع، وأهميَّة السرية في العمل المقاوم، ونقد التغريب والتطبيع، وغيرها من الموضوعات التي لا تفصل عن الواقع اليومي للمجتمع المقاوم. وهي بذلك تسعى لبناء جيل لا يُخدع بالشعارات، ولا يُساق بالغرائز، ولا يُستنزف في معارك جانبية، وإنما يدرك موقعه ودوره، ويتعامل مع الوعي بوصفه فعلاً مقاوماً.

إنَّ «صناعة الوعي» هي رؤية متكاملة، تعتبر أنَّ النصر يبدأ من الفكرة، وأنَّ الهزيمة تتحقق حين يُصادَر العقل، أو يُخدر، أو يُخترق.

## مقدمة

زاحتِ اليوم وسائل التواصل الاجتماعيّ، وعمومُ وسائل الإعلامِ  
الفضاءِ الخاصّ بالفرد، فضلاً عن المجتمع، فيما يتعلّق بنقل كلّ ما هو  
خاص إلى العام، أو ما يُعبّر عنه بإظهار نمط الحياة اليوميّة، ومشاركتها في  
وسائل التواصل الاجتماعيّ (السوشال ميديا). أدّى هذا الأمر إلى زعزعةِ  
الحيزِ الشخصيّ، وتحوّيلِ الحياة إلى نمط متداخلٍ على نحو فوضويِّ  
مع الفضاء الافتراضيّ لهذه المواقع، بعد أنْ أعطت مستخدميها الحريةَ  
في نشر كلّ ما هو قابل للتصوير ومن قبل الجميع؛ أي إباحة للكلّ في  
الكلّ، حتّى أصبح ذلك جزءاً من هويّتهم التواصليّة والتفاعلية مع ما  
يحدث، سواء في مناقشة الأمور - وهذا ما لا يعنينا بشكل مباشر - أم  
الاستعراض الشخصيّ لنمط الحياة الخاصّ بهم، باعتبارها بديهية مترسّخة  
من حاجياتهم اليوميّة. ولأنَّ بعضَ هذه الأمور اليوميّة مرتبطةُ بقضايا قد

## ٦ السريةُ ضرورةٌ وجوديةٌ

تكون أمنيةً، أو تمسُّ بشكل مباشر أو غير مباشر مصلحةً المجتمع، فإنَّ استخدامَ هذه الميزة أو الوسيلة في التعبير والنشر، سيَمسُّ تلقائياً المصالح العليا لهذه الجماعة أو تلك الدولة، بل ويصل الأمر إلى المساس بالهوية العقدية أو العادات والتقاليد لهذا المجتمع أو ذاك، ما يخرج الأمر برمتته من دائرة الحرية الشخصية، و يجعلها بصورة من الصور حالةً من التعدي على بقية الناس.

من هذا الباب ننطلق في موضوع هذا الكتاب، فالسرية اليوم لم تُعدْ خياراً ترفيهياً بقدر ما أصبحت مساراً إجبارياً للتعامل مع التحدّيات الراهنة التي فرضها هذا التطور، والذي تقف خلفه قوى كبرى، تحاول الاستفادَةَ قدر الإمكان من أدواتها، وبالطريقة التي تضمن تحقيقَ مصالحها وأهدافها التي تتبعيها، وهنَّا تكمن أهمية هذا الموضوع، الذي يأتي في ظلّ انعماص جمعيٍّ في هذه الأدوات والوسائل التي صدرَتها هذه القوى، دون مراعاة لأيٍّ مخاطر يمكن أن تشكيّلها في ما يتعلق بتبادل المعلومات سواء أكانت داخلَها أم بشكل عامٍ.

◆◇◇◇◇◆      **الفصل الأول:** ◆◇◇◇◆

مفهوم السرية والمفاهيم المتصلة



في زمنٍ تتسرّع فيه وتيرة الانكشاف المعلوّماتي ، وتعدو فيه الخصوصية مهدّدة على مدار اللحظة ، تبرز «السرّية» بصفتها قيمةً مركزيةً لا غنى عنها في حفظ الذات والمجتمع . فلم يعد الكتمان مجرد خيار فردي ، بل تحول إلى ضرورة جماعية تفرضها تحديات الأمن والتواصل الرقمي . يتناول هذا الفصل مفهوم السرّية من جذوره اللغوية إلى امتداداته الاصطلاحية ، كاشفًا عن أبعاده الخلقيّة والشرعية والعقلية . كما يميّز بين السرّية والتقيّة ، موضّحًا الفروق الدقيقة بينهما في السياقين الفردي والجماعي . ومن خلال هذا التناول ، تتضح أهمية السرّية بوصفها أدّةً مقاومةً ، وحمايةً في عالمٍ يضجّ بالانكشاف وانعدام الخصوصية .

## المبحث الأول: مفهوم السرّية

تُعدُّ «السرّية» من الكلمات المتداولةِ بكثرة ضمن الحيز الاجتماعي

## ١٠ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

والشعبي؛ لأنَّها متَّصلة بالاستخدام اليومي لكثير من المجالات المتعددة، وفي المجالين الخاصِّ والعامِّ، والمقصود هنا بالطبع المستويان الفردي والجماعي، كذلك فإنَّ الدلالة اللغوية لهذا المصطلح ستجيب أكثر عن ذلك.

### أولاً: المفهوم اللغوي:

اشتُّقت هذه الكلمة من المصدر «سر»، وكما هو شائع فإنَّها تدلُّ على المعاني المرتبطة بالكتمان وعدم الإذاعة. «السرُّ من الأُسرار التي تُكتَمَ، والسرُّ ما أُخْفِيتَ، والجمع أُسْرَار، ورجل سِرِّيٌّ يصنع الأشياء سِرِّاً من قوم سِرِّيَّين، والسريريةُ كالسِّرِّ، والجمع السرائرُ. السرُّ ما أُسْرَرْتَ به والسريريةُ عمل السر من خير أو شر، وأسرَ الشيء كتمَه وأظهرَه، وهو من الأَضداد. سرَّته كتمته وسررتَه أَعْلَمَته»<sup>(١)</sup>

أيضاً ترتبط الدلالة اللغوية للمصطلح بالحيز الشخصي وتحديداً الإطار المستقبلي له؛ أي بمعنى أوضح، بالأمور التي يعزم على القيام بها «هو ما تكتمه وتُخفيه، وما يُسرِّه المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها»<sup>(٢)</sup>. ومن السياقات اللغوية التي تأتي بها دلالات هذا المصطلح هو

١ - ابن منظور: لسان العرب، ص ١٩٨٩.

٢ - موقف علي عبيد: سرية التحقيقات الجزائية وحقوق الدفاع.

الأفضلية، والتميُّز عن الآخرين ”والسر: الأرض الطيبة الكريمة، وبطن الوادي وأطبيه، وجوف كلّ شيء ولبه، ومحض النسب وخالصه وأفضله، يقال: فلان في سر قومه؛ أي في أفضلهم.“<sup>(١)</sup>

قد تكون هذه الدلالة غير مرتبطة ارتباطاً واضحًا بالموضوع الرئيس أو الدلالات المبتغاة من هذا البحث، لكنَّها بشكل من الأشكال نراها متصلة بالشخصية التي تمارس هذا الفعل؛ أي الكتمان وعدم الإذاعة، ففي الوقت الذي يُعرض كلُّ شيء بشكل علني دوماً، من خلال هستيريا النشر التي فرضتها مواقع التواصل الاجتماعي، وفي ظل عدم مراعاة أبسط قواعد الأمان الشخصي والمجتمعي، فإنَّ هذا الشخص سيكون فعلياً متمايِزاً في ظلِّ ما نعيشه.

### ثانيًا: المفهوم الاصطلاحي:

رغم اختلاف الصيغ التي قد يتمُّ فيها تناول هذا المفهوم، تبعًا لاختلاف السياقات التي يأتي فيها، لكن في المحصلة، وبخلاف الكثير من المفاهيم والمصطلحات في شتَّى العلوم، فإنَّ الأساس الذي يقوم عليه واحد، أو بالأحرى هناك مشترك جامع يوحّد الاختلافات التي يتعرَّض لها في تناوله،

---

١ - علي أبو البصل: السرية في الفقه الإسلامي، ص ٢٢.

## ١٢ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

مثلكما أسلفنا ضمن مجالات معينة، لذلك هناك من عرَفَه على النحو الآتي:  
«السر هو الأمر النفيض المكتوم في النفس، أو ما يُفضي به الإنسان إلى آخر مستكتمًا إِيَّاه من قبل أو من بعد؛ صراحةً أو دلالةً». <sup>(١)</sup>  
بينما عرَفَه (الراغب الأصفهاني) بأنَّه: «الحديث المكتَم في النفس وهو خلاف الإعلان، ويُستعمل في الأعيان والمعاني» <sup>(٢)</sup>، توسَّعَت بعض التعاريف لتشمل النوايا والعقائد، والأعمال الشخصية التي يقوم بها الفرد: «هو ما يكُنُّه الإنسان في نفسه من العقائد والنيَّات وما يخفيه من أعمال الجوارح». <sup>(٣)</sup>

بالمقابل، ذهب آخرون لربط هذا المفهوم بوجود المصلحة المشروعة، وهو ربط قانوني؛ حيث تُوكل لهذا الأخير مهمة تحديد وجود المصلحة من عدمها، «واقعٌ ينحصر نطاق العلم بها في عدد محدود من الأشخاص، إذا كانت ثمةً مصلحة يعترف بها القانون لشخص أو أكثر في أن يظلَّ العلم بها محصوراً في ذلك النطاق». <sup>(٤)</sup>

وبعد استعراض هذه التعريفات ومطالعة غيرها، فإنَّ المشتركات التي

---

١ - علي أبو البصل: السرية في الفقه الإسلامي، ص ٢٢.

٢ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢٨.

٣ - بو مور وزيتب حسين موسى: السرائر في ضوء القرآن الكريم، ص ٤.

٤ - موقف علي عبيد: سرية التحقيقات الجزائية وحقوق الدفاع.

سبق أن أشرنا إليها، نجدها محددة ضمن أسس الكتمان، سواء كان مع النفس، أم من خلال الإفضاء به إلى الآخر. إذًا، عدم الإذاعة هو محدد ومنطلق يوجد تقريرًا في كل المجالات والعلوم التي تناولت موضوع السرية، باستثناء الصوفية طبعًا، والذين يعطون معنى وتعريفًا مغایرًا تماماً للسر، وهو متأنٍ بالطبع من مساراتهم المتّبع في الحياة والتدین.

## المبحث الثاني: ما السرية التي نقصدُها، في التفريق بينها وبين التقى

### أولاً: ما السرية التي نقصدُها

قلنا فيما سبق، إن السرية مفهوم مستخدم في كثير من المجالات. قد يؤدي هذا الأمر إلى تعوييم الفكرة المطلوبة؛ أي جعلها ضبابية في عموميات غير مطلوبة، أو داخلة ضمن المراد من هذا البحث. من هنا، نرى ضرورة توضيح المقصود الذي نتبغيه من هذا المصطلح؛ لكي يكون أساساً نسير وفقه في بقية الصفحات.

في ظلّ مزاحمة وسائل الاتصال والتواصل، وبالخصوص الإلكتروني منها، للفضاء الخاص للفرد، ومن ثم هوية المجتمع، فيما يتعلق بنقل كلّ ما هو خاص للعام، أو ما يُعبر عنه بإظهار نمط الحياة اليومية، ومشاركتها

في وسائل التواصل الاجتماعي، فتحولت الحياة إلى نمط متداخل على نحو فوضوي مع الفضاء الافتراضي لهذه المواقع. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل وصل في ظل المساحة التي وفرّتها مواقع التواصل الاجتماعي لإبداء الآراء، والحرّية في نشر كلّ ما هو قابل للتصوير ومن قبل الجميع؛ أي إباحة كلّ شيء لكلّ الناس، الذي وصل إلى حالة من التعطُّش تارةً لدى من حُرموا سابقاً من هذه الميزة؛ أي الأجيال السابقة لهذا التقدُّم التكنولوجي والتقني في مجال الاتصالات، والاعتياد بالنسبة للجيل الجديد؛ أي أصبح ذلك جزءاً من هويتهم التواصيلية والتفاعلية مع ما يحدث، سواء في مناقشة الأمور - وهذا ما لا يعنينا بشكل مباشر - أم الاستعراض الشخصي لنمط الحياة الخاصّ بهم، باعتباره بديهية متعرّضة في حاجياتهم اليومية. ولأنَّ بعض هذه الأمور اليومية مرتبطة بقضايا قد تكون أمنية، أو تمَسُّ بشكل مباشر أو غير مباشر مصلحة المجتمع، فإنَّ استخدام هذه الميزة أو الوسيلة في التعبير والنشر، سيمسُّ تلقائياً المصالح العليا لهذه الجماعة أو تلك الدولة، بل يصل الأمر للمساس بالهوية العَقْدِيَّة، أو العادات والتقاليد لهذا المجتمع أو ذاك، ما يخرج الأمر برمتّه من دائرة الحرّية الشخصية، ويجعلها بصورة من الصور حالةً من التعدّي على بقية الناس. لذلك، فالسرية التي نقصدها، هي مفهوم وجودي للمجتمع والدولة، فرضه نمط الحياة والتقدُّم المعاشر، مضافاً

إلى كونه أساساً ضروريّاً للتعايش مع التحدّيات القائمة؛ سواءً أكانت أمنيّةً، وهو الأمر الواضح للعيان من هذه المسألة، أم مرتبطةً بحالة الضرر الناشئ على النسيج الاجتماعي بشكل عام وتلقائي.

إنَّ السرِّية التي نقصدها ونبتغيها اليوم، هي تكليف شرعٍ مرتب بالحفظ على النفس، وخصوصاً حينما يتعلّق الأمر بالجهاد ومقاومة الاحتلال ومصالحه الاستعمارية في بلداننا. كما أنَّها اليوم أساس في الحفاظ على الأمن القومي والوطني للدولة والبلدان؛ لأنَّ إذاعة كل حدث، وخصوصاً في الجوانب العسكرية والأحداث الأمنية، يعطي إحداثياتٍ مجانية، وخدمةً للدول والمنظمات المعادية، تمكّنها من معرفة نتائجُ أفعالها، أو ما تقوم به من ممارسات واستهدافات.

ثانيًا: في التفريق بين السرِّية وبين التقييَّة

التقييَّة، وهي رخصةٌ ظرفيةٌ للخروج عن القاعدة الشرعية العامة، تتعلّق بالفرد بوصفه ظرفاً قاهراً، بغضّ النظر عن المقابل، سواءً كان كافراً أم مسلماً، تستمدُّ شرعيتها من مصدريْن رئيسين، هما: العقل والشرع.

#### ١. من جهة العقل:

هذا متأتٍ من ردِّ الفعلِ الطبيعيِّ للإنسان الاعتيادي، حينما يستشعر

## ١٦ السريةُ ضرورة وجودية

خطراً يهدّده في حياته وسواها، فلا يمكن تصوّر أيّ شيء عدا كونه يحاول التخلص من ذلك بأيّ طريقة كانت، حتّى لو تحدّم الأمر الخروج عن المأثور والمعتارف بالنسبة له، لذلك فهي متعلقة بذات الإنسان ومنطقية الحفاظ على النفس بأيّ طريقة كانت، هذه الغريزة الدفاعية من شأنها أن تفرض سياقات جديدةً، تقطع من خلالها التواصل بين القلب واللسان، بين التفكير واللّوطق، وبين المعتقد والمظاهر.

أمّا فيما يتعلّق بالذات القادرة على تجاوز الأمر القاهر بشجاعة وسواها، فالامر لا يدعو أن يكون حالة استثنائية؛ إذ لا يمكن البناء العقلانيُّ عليه، نظير فرادتها، كما أنَّ القياس النظري والتطبيقي يؤخذ بمعيار المجموع لا الحالات الفردية، فليس من المعقول مثلاً، أن توصف مدرسة بالمحاطة رغم أنَّ جميع طلابها من الذكور فقط؛ لأنَّ ذلك اليوم شهد حضور طالبة مع أبيها (الأستاذ) في تلك المدرسة! لذلك، نحن نرى بأنَّ حتّى لو ظهرت حالة الاستثناء، ستكون بالمجمل وقتيّة طارئة، متعلقة بمقومات مُكتسبة أو ذاتية، غير متاحة لكل الناس. لذلك، يتعدّر تشكيلها للرؤيا الواقعية للذات الإنسانية بوصفها محلّ مطابقة بين مفهوم التقيّة، وبين العقل المُدرك لها.

٢. من جهة الشرع:

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في نصوصه، مثل: «وقال رجلٌ مؤمنٌ مِنْ

آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّ الَّهِ وَقَدْ جَاءَكُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا يُصِبْكُمْ  
بَعْضُ الدَّى يَعْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ» [غافر: ٢٨]  
أو قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ  
مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ إِلَى الْكُفْرِ صَدًّا فَعَلَيْهِمْ غَصَبٌ مِنْ  
اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [النحل: ١٠٦]

وغيرها من النصوص التي ذكرت التقيّة في سياقات إيجابيّة، لاقترانها بدلاله الإيمان الداخلي، وسموّه على المنحى الخارجي الذي قد لا يتعدّاه، كما يلاحظ ارتباط المفهوم مجملًا بالضرورة التي ت عدم الخيارات الأخرى. ومن هنا نرى مطابقة الشرعيّ والعلقي في إطار الطبيعة الإنسانية، كونها الذات المالكة والمقدّرة بالنسبة للعقل، وكذلك المُخاطبة والمقصودة في الخطاب الشرعي.

يتَّضح مما تقدَّم أنَّ مصدرية التقيّة شرعية بالدرجة الأساس، وإن كانت مُؤيَّدة عقلائيًّا مثلما رأينا، كما أنَّ حدودها في الأمور الشرعية والعقدية. أمَّا السرِّيَّة والكتمان، فهما في الغالب يعودان إلى الإطار الخلقي بشكل عام، ووفق الرؤية الكلية للمصطلح؛ لأنَّه أشبه ما يكون بالالتزام شخصي للفرد مقابل الآخرين بعدم الإفشاء، وهو مُعَضَّد أيضًا شرعياً في بعض الموارد، لكن، ومثلما أسلفنا، إنَّه مسألة خلقيَّة بالدرجة الأساس.

## ١٨ السرية ضرورة وجودية

هذا هو الإطار الكلّي للمفهوم، لكنّا نرى أنَّ الأمر الآن مختلف، وأنَّ الدافع الرئيس الذي يجب أن يكون عليه هذا المفهوم، هو الضرورة الوجوديَّة لحفظ الجماعة الصالحة، أو بالتعبير الشائع «المجتمع»، وحينما ننظر من هذا الاتجاه، فإنَّ السرية ستصبح ذات أُسسٍ عقلية وشرعية معاً في الخط نفسه.

فمن حيث العقل، يقتضي هذا التطُور الزمني وما لا ته من تقنيات في المجالات كافة، السعي المستمر والدؤوب في حفظ الكينونة والهوية الذاتيَّة، وقبل كل ذلك الأرواح، خصوصاً أنَّ الاستهدافات الحديثة، والاغتيالات الميدانية دائماً ما تستند إلى هذه الوسائل التي نستخدمها؛ سواء في التعقب أم في تحديد الموقع.

ومن الناحية الشرعية، فما دام عدم الالتزام بالسرية - خصوصاً في وقت الحروب مع العدو، أو حتَّى أحياناً في الأوقات الاعتبادية - يؤدي إلى خطر جسيم على مجموعة من المسلمين أو أحد الأفراد منهم، فحافظ دم المسلم هنا واجب شرعي محتم. من هذا الباب، من الممكن أن تتشكل المصدرية الشرعية لهذا المفهوم.

قد يظن القارئ بعد هذا الاستعراض، أنَّ التقىَة والسرية متشابهتان انطلاقاً مما قلناه. بالتأكيد لا، فالاختلاف بين المفهومين يكمن بالأساس في محتواهما. فالتقىَة منوطة بإخفاء الاتجاه الديني للشخص في البيئة

الرافضة والمنكّلة بهذا التوجّه العقديّ أو ذاك، وهي واضحة المعالم من حيث توفر هذه الشروط، فيما يكون مضمون السرية كتمان الأمور بشكل عام، لا لأنَّ هذا الفرد يعيش ضمن حدود سلطة غاشمة وجائرة، أو جماعات على هذه الشاكلة، بل هي - من وجهة نظرنا - ضرورةٌ حتَّى في المجتمعات المحكومة من سلطة متوافقة مع هذا الاتجاه للفرد أو الجماعة؛ لأنَّ الأمر غير مقتصر أو مؤطرٌ ضمن حدود معينة.

وهنا أيضًا ليس بالضرورة نتاجَ صراع بين الفرد أو الجماعة مع السلطة الحاكمة، بل هو متعلقٌ بكونه ضرورةً وجودية زمنية تقتضيها عمليةُ التقدُّم التقنيّ، وذلك للتعايش ومجابهة العدوّ، ومنعه من استغلال وسائله الاتصالية لمعرفة كلِّ شيءٍ بشكل آنيٍّ، وهذا بالطبع نتيجة حالة الهستيريا التي رسَّختها هذه الأدوات في إيصال غالبية المجتمعات دول العالم إلى هذه الحالة.



◆◇◇◇◇◇◆      **الفصل الثاني:** ◆◇◇◇◇◆

الأبعاد الناجمة عن السرية والكتمان



هناك عدد من الأبعاد الناجمة -أو التي ستنجم- عن مسألة السرية وضرورة الكتمان في التعامل مع كثير من القضايا الراهنة، خصوصاً في الوقت الحاضر، مما يستلزم توضيحاً لهذه الأبعاد، بالشكل الذي يعهدد هذه المسألة، مضافاً إلى أنَّ هذه الأبعاد تحمل معها بياناً تأكيدياً على أهمية السرية لا باعتبارها مساراً اختيارياً، بل خياراً إجبارياً على ما نشاهده من مخاطر في الوقت الحالي، واستراتيجية فاعلةً في حالة الاستمرار بالعمل بها مستقبلاً، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنَّ هذه الأبعاد بذاتها مصاديق وبراهين تؤكِّد الأهميَّة الفعلية للسرية وتشرِّعنها، ومن جوانب عدَّة. من هنا تأتي أهميَّة حديثنا ذا.

## المبحث الأولُ: البُعد الشرعيُّ

قلنا فيما سبق، إنَّ حفظَ دم المسلم من الأمور المقدَّمة والضرورية في

الدين الإسلامي، وقد وُضعت له مكانة عظيمة، ومنزلة علية، في حيز الدفاع عن هذا الدم، وحمايته من كل سوء وشرور، تؤدي لإراقته. فالنبي محمد ﷺ، في كثير من الأحاديث الشريفة الواردة عنه، يؤكّد بشكل مستمر على حرمة الدم وضرورة المحافظة عليه، حتى في خطبه الأخيرة، خصوصاً في خطبة حجّة الوداع؛ حيث قال: «أيها الناس، اسمعوا ما أقول لكم واعقلوا عنيّ، فإني لا أدرى لعليّ لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا. ثم قال: أي يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم. قال: فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: فأي بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد. قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه، فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم.»<sup>(١)</sup>

ولم يتوقف عند هذا الحد، بل وصل الأمر حد التشديد والتأكيد على عدم التهاون بأيّ صورة من الصور مع هذا الموضوع، وقرن المشاركة أو الإسهام في تعريض المسلم للقتل وسفكه دمه بالدخول إلى جهنم؛ حيث قال (ص): «لو أنَّ أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع اشتركوا في دم مؤمنٍ لأكبّهم الله جميّعاً في النار». <sup>(٢)</sup>

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١١٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٣٨٢.

ما علاقة كلّ ما تقدّم بموضوعنا؟

بساطة، إن كثيراً من حالات الإذاعة والإعلان في الوقت الحالي، أدت بطريقة أو بأخرى لإراقة دماء المسلمين وسفكها. وهنا تتحدد بالذات في فترات الحروب، خصوصاً حينما تكون أمام عدوًّا متمكن تقنياً، وله القدرة في المجال التكنولوجي والسيرياني، وكلّ ما هو متصل ومرتبط بهذه التقنيات والعلوم. لذلك، إنّ علاقة حرمة الدم، هنا علاقة نتيجة؛ أي أنها مرتبطة بمخرجات عدم الحفاظ على مبدأ السرية، وتجنب النشر المفرط للأمور كافة دون تمحیص، وعدم الأخذ بالاعتبار ما يمكن أن يؤدّي إليه هذا الفعل من نتائج وخيمة، تهدّد حياة الناس أو جماعة معينة، كالمقاومة -مثلاً- في مثل هذه الأوقات. إذًا، من هذا الباب تظهر العلاقة بين الأمرين، وهي تبدو في إحدى صورها غير مباشرة؛ نتيجة عمومية مفهوم السرية كما أسلفنا، وكونه مصطلحًا داخلاً في كثير من المجالات، فلا يمكن الشُّبه دائمًا من أنّ عدم الالتزام بالسرية، تتوج عنه إراقة الدماء، وإن حدثَ، فهو بحدود ضيق قد لا تخرج عن نطاق الاستثناء. لكن في إطار التعريف الذي أوردناه، والمفهوم المخصوص الذي نقصده من السرية في هذا البحث، أمست العلاقة مباشرةً، وللأسباب التي سبق ذكرها؛ أي من ناحية التقدُّم الزمني.

في قبال ذلك، هناك كثير من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

فيما يخص موضوع السرية بذاته، وهي تنهى بشكل صريح وعلني عن موضوع الإذاعة وإفشاء المعلومات، وقد قررت بعض الأوصاف الواردة لهذا الفعل بالخيانة؛ نتيجة الخطورة التي تترتب عليه، فعن الإمام علي عليه السلام: «الإذاعة خيانة»<sup>(١)</sup>.

ويستمر التشديد في التأكيد على هذا الموضوع، من خلال عملية الوصف الواردة في الأحاديث، وذلك من أجل النهي عن ممارسة الفعل هذا، حتى شب الإمام علي عليه السلام عدم المحافظة على الأسرار، وإفشاءها بالغدر: «إذاعة سر أو دعنه غدر»<sup>(٢)</sup>.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فالخطورة الكامنة خلف هذا الموضوع جسيمة، ونتائجها شديدة الوقع على المجتمعات الإسلامية على مر التاريخ، والآن أكثر من أي وقت مضى. من هذا الباب، قرن الإمام الصادق عليه السلام إذاعة السر بالقتل العمد بحق أهل البيت عليه السلام، وهذا وصف شديد الخطورة صادر عن المعمصون، الذي يعد كلامه تشريع بحد ذاته على مر الأزمان: «من أذاع علينا شيئاً من أمرنا، فهو كمن قتانا عمداً ولم يقتلنا خطأ»<sup>(٣)</sup>.

١ - علي بن محمد الليبي الواسطي: عيون الموعظ والحكم، ص ٣٧.

٢ - عبد الواحد الأمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٢.

٣ - الشيخ الطبرسي: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص ٤١.

وعنه أيضاً عليهما السلام: «عَلَيْكُمْ فِي أُمُورِكُمُ الْكُتْمَانَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّ الْإِذَاعَةَ كُفْرٌ، وَرُوِيَ أَنَّ الْمُذِيعَ وَالْقَاتِلَ شَرِيكًا»<sup>(١)</sup>.

وقد ربط هذا الفعل بأوصافٍ أخطر، ما يعني زجر كلّ شخص يحاول ارتكاب هذا الفعل، وتحذيره الشديد من مغبة الإقدام على إذاعة الأسرار، دون أيٍّ مراعاة لحرمة الدم الناجم عن إفشاء هذا السر أو ذاك. وليس هذا فحسب، فقد بين الإمام الصادق عليهما السلام أنَّ أسباب قتل الأنبياء والمرسلين كانت في إذاعة سرِّهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ﴾، قال: «أَمَا وَاللَّهِ مَا قَتَلُوهُمْ بِأَسْيَافِهِمْ، وَلَكِنْ أَذَاعُوا سِرِّهِمْ، وَأَفْشَوُا عَلَيْهِمْ، فَقُتِلُوا»<sup>(٢)</sup>.

استناداً إلى ذلك، تظهر الضرورة الفعلية والأهمية الجوهرية لمبدأ السرية، خصوصاً بعد قراءة هذه الأحاديث التي أكدت بشكل صريح على اتصاف القائم بهذا الفعل بأوصاف دينية، فضلاً - وهو الأهم - عن اشتراكه مع القاتل، إذا نجح عن هذا الفعل هدر للدماء، خصوصاً في ما يتعلق بالأمور العسكرية التي تخصن مجتمعاتنا والمرابطين على جبهاتها في مقاتلة الأعداء. هذا الأمر، مثلما أسلفنا، من الواجبات التي ينبغي أن تكون مترسخة في ذهنية عوام الناس، إسهاماً منهم في حفظ

١ - الإمام الرضا عليه السلام: فقه الرضا (المنسوب إليه)، ص ٣٣٨.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٨٧.

أهل التغور ومساندتهم: ”إنَّ كتمانَ الأُسرار العسكريَّة هو من الأخلاقِ العمليَّة التي ينبغي أن تتملَّك شخصيَّة المجاهدين، لموقعهم الحسَّاس والخطير. والخطأ الذي يُرتكب هو الأوَّل والأخِير. والتَّيجة ستكون في غاية الخطورة عندئذ، ومن ورائها خساراتٌ كبرى لا تُعوَّض، من قتل وأسرٍ واحتلال مواقعٍ. وقد تؤديُ الأمور إلى هزيمة الجيش بِكامله، كما حَدثَ في معركة أحد، وقد تؤديُ إلى سقوط دولة الإسلام بِكاملها.“<sup>(١)</sup>

إذاً، فالسريةُ سواء تاريخيًّا أم بالاستناد إلى التبدلات الكبيرة، وتحوُّل المجتمعات من الحالة المغلقة، إلى كونها عرضةً للفرجة أفرادًا وجماعات، أمام أنظار بقية العالم، أصبحت خيارًا جبriًّا لا ترفيهياً، مستندةً بذلك إلى شرعية دينية تعصُّد من الأخذ في هذا المسار.

وقد يُفهَمُ أنَّ السرية مقتصرة على الإطار الشخصي للفرد، وأنَّها منوطَة به، وهو أمر قد يصح لو سلَّمنَا فقط بأنَّها نقطة انطلاق إلى المسؤولية الجماعية. فالحدث القهري، وما يجري اليوم بشكل عام، والممتَحَنُ ضمن البيئة المحاطة، أو غيرها من البيئات، يسري على المجموع، وليس على الأمانة الفردية فحسب، في الكتمان وحفظ الأُسرار.

فلا يمكن بأيٍّ حالٍ من الأحوال اقتصار الظرف القاهر الموجب

---

١ - شبكة المعارف الإسلامية: الأمانة وكتمان السر.

لهذا الخيار على الفرد بصفته فرداً، والشواهد التاريخية والحاضرة تُرْجَحُ بكثير من الأمثلة الحية على هذه المسألة، في كون الحاجة ملحة إلى التبنيِ الجماعي للمحافظة، ولو بالقدر المُتَيقَّن من السرية، خصوصاً ونحن وفق حسابات الْكَمْ، بالنسبة للعالم قلة، والشيعة بالقياس إلى المسلمين كذلك أيضاً، ونحن نعيش في ظلّ عالم سياسي متسمّك برأى وأيديولوجيات، لا تراعي مبدأ خُلُقِيَاً أو إنسانيَاً، مضافاً إلى توحش القوى الكبرى في استخدام القوة العسكرية، لتدمير أي مقاومة وسحقها توقف بوجه نفوذها أو تحقيق مصالحها. يجري ذلك كله في ظلّ الجانب البراغماتي النفعي، الذي أصبح ضمن البديهيّات الراسخة، سواء في الفهم العام للسياسة أم كونها واقعاً عملياً، يجري التعاملُ من خلاله دولياً. إذًا، البُعد الشرعي والمستند إلى كثير من أحاديث النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، قد قطع بشكل لا يقبل الشك، أو حتى التأويل، بضرورة المحافظة على القدر المُتَيقَّن من السرية، خصوصاً في الأمور التي يؤدّي عدم كتمانها، إلى ضرر مباشر أو غير مباشر يقع على الأمة الإسلامية. من هنا، تتَّضح أيضاً الخطورة الكامنة خلف عدم أخذ هذا الموضوع بجدية، فبعيدة عن المخاطر التي ستحصل بحكم المؤكَّد واقعاً، فإنَّ هناك مسؤولية شرعية تقع على عاتق الفرد أو الجماعة التي تبتعد عن السرية. قد يُحتاجُ في هذا الشأن، بأنَّ الأحاديث التي أوردنها متعلقة بظروف

زمنية معينة، كان أتباع أهل البيت فيها مضطهدين من السلطات القائمة آنذاك، ما يؤدي تلقائياً إلى عدم دقة الاستدلال بها وصوابيتها هنا في موضوع السرية والكتمان؟

وهنا يجب علينا ملاحظة أمر مهم، وهو مرتبط بالدرجة الأولى بطبيعة النظام الدولي القائم على سلط دول وأنظمة كبرى ظالمة، لا تختلف عن السلطات تلك إلا باللغة أو الثياب. استعمار وهيمنة على المستويات كافة، مضافاً - وهو الأخطر - إلى أن هذه الدول ابتكرت أدوات لنفسها، أسهمت في تعزيز هيمنتها على مجتمعات بغالبيتها، دون أن تستشعر هذه الجماعات الخطر الكامن، وكونها ضحيةً لمصالح وخلفيات عقدية لهذه الأنظمة! ما يعني أن السوط والسجن والاغتيالات وسوها، مما كان شائعاً في ذلك الزمن، تبدلت صورها وفقاً للتطور الذي فرضته هذه المرحلة، لكنها بقيت محافظةً على ذاتها؛ أي الغايات التي من أجلها قد وُجدت، وهي الإخضاع والسيطرة وتدمير كلّ ما هو معارض لها وضدّ مصالحها في استعمار البلدان، مع اختلاف التكتيكات المستخدمة حالياً بالطبع.

فعلى سبيل المثال، كانت الاغتيالات تجري سابقاً مثلما هو متعارف من دس السم والصلب والقتل والغدر... إلخ، لكن اليوم قد لا يكون الاغتيال بهذه الصورة، وقد يُكتفى فقط بالاغتيال المعنوي لجماعات بأكملها فضلاً عن الأفراد، من خلال ضرب البنى العقدية والاجتماعية

لهم وتهديمهما، وتشويه صور الرموز الخاصة بهم، والعمل المستمر على استبدالها بديل أخرى، تخدم مصالح هذه الجهات المستهدفة، وهذا ما يجعل منهم فريسة سهلة أمام أي خطوة تتخذها هذه الأنظمة.

إذًا، فالأدوات متشابهة باختلاف أشكالها. ومن باب آخر، فإن الاستهدافات والملاحقات بحق مقاومي الاحتلال هيمنة الاستكبار لا تزال قائمة، وإن كانت تجري وفق مخططات محددة ومدروسة؛ حيث يجري الآن التقسيم ومن ثم الاستفراد؛ أي تقسيمهم إلى جهات سين وصاد، بحيث ينكل فكريًا ومعنوياً بالأول، وقد يُمْتَدِّحُ الثاني ويُحْتَفَى به إن لزم الأمر. وطبعاً، كما هو معروف، يجري كل ذلك من أجل إقناع ”صاد“ بخطورة وانحراف مُبْتَنَيات ”سين“، وأن مصيره سيكون مشابهاً لما يلقاه ”سين“، في حال خطا الخطوات ذاتها التي خطتها الأخرى، وهكذا... إلخ. وهنا، في الحقيقة، كلهم مستهدفون، لكن لاعتبارات الرأي العالمي، ولئلاً تبدو هذه الأنظمة كما لو أنها تستهدف طائفة بعينها، أو معتقداً برمته، ما يجعلها في وضعٍ حرج أمام هذا الرأي، غالباً ما تلجأ إلى استفراد كل جماعة على حدة.

وهنا، قد يُطرح السؤال الآتي: خلال التجارب التي خضناها، بما فيها موضوع غزّة الراهن والقضية الفلسطينية، لم نلحظ أي اهتمام من إسرائيل بذلك، ولا حتى أمريكا التي بقيت تدعم الكيان المؤقت بكل أشكال

الدعم، من أسلحة وأموال وغيره... إلخ! لماذا بدت أميركا وإسرائيل غير آبهتين بالمجتمع الدولي والإعلام العالمي؟!

الجواب ببساطة، إنَّ الفاعلين الفلسطينيين في القضية الفلسطينية، سواء قبل طوفان الأقصى أم بعده، جرى تقسيمهم إلى قسمين: قسم يجري التنكيل به واغتياله حقيقةً أو معنوياً في كل يوم، وقسم آخر يجري تصديره بوصفه معتبراً رسمياً ووحيداً لهذه القضية.

وعموماً، يجري التعامل مع القضية الفلسطينية دولياً على هذا الأساس أيضاً. لذلك، فإنَّ الوسائل التي نراها هنا، هي ضدّ قواعد النظام الدولي القائم شعرياً على حفظ المدنيين وحقوق الشعوب وحمايتها... إلخ، فيما يجري تغطيتها باستمرار من خلال تصدير الطرف الأول بوصفه متمرداً وإرهابياً، وأنَّه لا يمثل القضية الفلسطينية، وهو ينفذ أجندات خارجية... إلخ، ويزعزع أمن إسرائيل والمنطقة، ويستهدف المدنيين فيها! وهو ما يجري بالفعل، حتى يجري تشكيل هذه الصورة في ذهنية كثيرين، كما لوا أنَّ سبب الاحتلال بالأصل هؤلاء!

وهذا ما يولد لدى الرأي العام العالمي تصوراً مفاده، أنَّ ما يحصل في فلسطين لا يعدُّ أنْ يكون نزاعاً بين طرفين، أو بالأحرى بين دولة - وهنا المقصود بالطبع الكيان المؤقت - وحركة حماس ومعها حركات المقاومة الأخرى، وهي وفق معايير المجتمع الدولي جماعات إرهابية!

وبغض النظر عن الزييف الذي تحمله هذه الأوصاف والصور، لكنه في الواقع، هذا هو المعمول به، دون أن ننسى طبعاً سيطرة هذه الدول بالأصل على معظم وسائل الإعلام العالمية المؤثرة، ما يساعدها على صياغة القصة بالشكل الذي يخدم تطلعاتها ومصالحها. على عكس ما لو جرى الأمر بمحاربة الفلسطينيين بشكل موحد، فإنّ من شأن ذلك، أنْ يقطع الطريق على الأميركي للتلاعب في الحدث أمام المجتمع الدولي، فبندو أميركا بذلك أمام حلفائها بمظهر المتمرّد على أسس النظام الدولي الذي أسّسته بمفردها بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بداية تسعينيات القرن المنصرم.

ييدّ أن هذا التقسيم الذي يُمارس حالياً يمنع حركة فتح أو السلطة الفلسطينية بالعموم هامشًا سياسياً، يجعل الخيار الآخر المتوجه من قبل حماس وحركات المقاومة الأخرى معزولاً عن الشرعية الرسمية - وهي شرعية لا معنى لها بالأصل -، فيغدو الخيار العسكري الذي تتبنّاه المقاومة شاذًا، ويجب التصدّي له؛ إذ لا مساراً ولا خيار أمام الفلسطينيين سوى الدبلوماسية والمفاوضات السياسية (رغم وضوح عدم جدواها منذ عقود).

إذًا، هذا هو الفرق بشكل عام، مع بروز بعض الحالات الشاذة عن هذا الوصف باستمرار، لكن في الغالب يجري اللعب وفق هذه الهوامش

والفارق من قبل هذه الدول.

هذا ما يصدق حالياً أيضاً، وبدرجة من الدرجات على كثير من أوضاعنا، لذلك فإنَّ المقاومين ليسوا في رفاهية اليوم، الفرق، بالطبع، هو التنظيم والعدد. إذَا، الاستناد إلى عدم ملاحة الأنظمة الجائرة، لا يبدو صالحًا للتعكُّز عليه، هذا من جهة، من جهة أخرى، فإنَّ قولَ المقصوم هو تشريع نافذ، وبصرف النظر عن كون هذا الموضوع بالذات من الأحكام الثابتة أو الأحكام المتغيرة، فالنقطة الأولى والأهم هي جهة الصدور. ومن ناحية أخرى، وإن كانت السرية من المواضيع والأساليب الظرفية، ومن ثمَّ هي من الأحكام المتغيرة، لكنَّ بالقياس للمبدأ ذاته، فإنَّ هذا الزمان، وفي ظل التطورات والأحداث المتسارعة بوتيرة عالية، وعلى المستويات كافة، وخصوصاً تقنيات الاتصال منها، وسيطرة الأنظمة الجائرة ذاتها عليها، والتي لا تراعي أي مبدأً أو وازع خلقي أو ديني، في اتخاذ الوسائل كلَّها لتدمير كلَّ ما يناديه، ويعادي مصالحها.

على هذا الأساس، نستطيع القول، إنَّ السرية في هذا الوقت من الأحكام الشرعية التي ينبغي الالتزام بها، وأساس شرعيتها يكمن في تشابه كثير من الأمور مع الظروف التي كانت سائدة وقت تشريعها من قبل المقصوم في تلك المراحل الزمنية.

ويمكن إجمال المبحث بالنقاط الآتية:

١. بالإمكان ربط موضوع السرية بالقتل، ما دام أنّه نتيجة له في كثير من الحالات، سواء في السابق كمارأينا من خلال الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام، أم في الوقت الحاضر من خلال النشر اللا محدود في موقع إلكترونية، تعتبر من أدوات العدو.
٢. يمكن أنْ تنبثق شرعية السرية في البدء من هذا العنوان، أي وجوب الحرص على عدم إراقة دم المسلم. وما دامت الإذاعة وعدم الكتمان تسبيباً بهدر كثير من الدماء، تُمسى حمايتها من خلال الحفاظ على السرية واجباً شرعاً قائماً بحد ذاته.
٣. إنّ السرية عنوان أصلي بحد ذاته في مجال الشريعة المتuelle، وهو لا يحتاج بذلك لعناوين أخرى للارتباط، وتأكيد هذه الشرعية، لكن مع ذلك وكمارأينا في النقطة الثانية، فإنّ المحافظة على دماء المسلمين، جاءت معاضيّة أكثر، ومساندة في التأكيد على الأهمية الكبرى لهذا الموضوع.
٤. وردت كثير من الأوصاف الزاجرة في مسألة الإذاعة، من قبيل الغدر والخيانة، وذلك كله للتأكد على منع هذه الحالة من الانتشار في الأوساط الاجتماعية؛ كونها آفةً أدّت -وما زالت- إلى نتائج وخيمة.
٥. وردت صفات من قبيل: «قتل أهل البيت عليهم السلام عمداً»، و«قتل

الأنبياء» و«الكفر بالله تعالى»، في الشخص الذي يذيع الأسرار، ولا يحافظ على الكتمان في أمور المسلمين. وهذا المنحى التصاعدي في نبرة الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع، هي لقطع أي شك يمكن أن يتبدّل إلى الذهن في ما يخص الإذاعة، وأهميتها القصوى والجوهريّة بالنسبة للأمة كلّها، ولأتباع أهل البيت عليهما السلام على وجه الخصوص.

٦. السرية من الأحكام الظرفية غير الثابتة، ومع ذلك، وقياساً على المعيار ذاته، فإنّها ما زالت ملزمَةً، نتيجة التشابه الظري مع المراحل الزمنية لوقت صدور التشريع، وازدياد أهميتها في الوقت الراهن نتيجة التطوّر الحاصل في تقنيات الاتصال، والمستخدمة من قبل أنظمة معادية.

## المبحث الثاني: البعد الخلقيُّ

لا يمكن لنا الحديث عن الأخلاق بمعزل عن الإجابة عن سؤال مهمٌ، وهو المتعلق بالفرد أو الجماعة، أدينا يهتمُ بأحدهما دون الآخر أم ماذا؟ ليس لهذا السؤال أهمية في الجانب الخلقي فحسب، بل أيضاً في كونه نتاجاً واقعياً للنظريات السياسية الحديثة، والأكثر شيوعاً، والتي اتخذته منطلقاً في تشكيل المسارات المتّبعة من قبلها، وفي مختلف المجالات.

فمثلاً، تَتَّخِذ الليبرالية الفرد بصفته إجابة ممتدّة ومرتبطة في مناخ عدّة. فهي لاعتبارها نظرية مرتبطة بمفهومي الحرية والفردانية، تعتبر الحرية جزءاً من الهوية الذاتية للإنسان، وهي مفهوم متجلّر يشكّل ظلاً لوجوده، ويمتدُ ليصل إلى ماهيّة خلقه، ولكنّه حلقة ضمن ميشلاتها التي تشكّل سلسلة تراتيّة في الحياة. ولذلك، أيُّ انحراف يصيب أيَّ جزء من هذه السلسلة، سيؤدي حتماً إلى خلل واعقي يؤثّر في الفرد والمجتمع على حد سواء.

فيما تتمحور الفردانية حول الرغبة الشخصية، بوصفها قيمة مستقلّة وعليها فوق أي اعتبار آخر، “تَدُّ الليبرالية الوجه الفردي للنفس الأَمَّارة [...]؛ إذ جرى تعريف الإنسان في هذه المنظومة الفكرية وفقاً لهذا المنظور الذي يَعُدُّ الإنسانَ كائناً نفسانياً قائماً بذاته؛ أيَّ أنه كائن يتحرّك، ويتحفّز بميلوه وأمامه غير المحدودة، وغير المقيدة، وغير المشروعة، والنفعية، والباحثة عن التلذذ والسلطة والتكتُّر والاستثمار، وهو في ذاته لا يملك أيَّ حسٌّ وحافظ إيجابي تجاه نظيره الآخر، بل إنَّ ما يُقرّبه من الآخرين بصورة مؤقّته، أو يبعده عنهم، هو عوزه وميّله لتحقيق الرغبات والهيمنة على الآخر”<sup>(١)</sup>. في مقابل ذلك، بلورت الاستراكية جُلَّ اهتماماتها بالطبقة أو الجماعة،

١ - شهريار زرشناس: الليبرالية، ص ١٣.

دون أن تعبأ بالفرد إلا في حالات ضيقّة جدًا. فال الأولوية هنا للمسار الجمعي للبروليتاريّة (طبقة العمال)، وما تنتجه من طرائق في التعامل مع القضايا والإشكاليّات، وما ستتولّد من مصالح وحقوق، ستصبُّ في خانة الملكيّة العامّة أولاً وقبل كل شيء. إذًا، إن الاشتراكيّة هنا هي ضدّ عكسيٌّ كلياً لليبرالية، مع ملاحظة أنَّ هذا الطرح لا يعني بأيِّ شكل من الأشكال تضميّته لمبدأ الأسبقية التاريخيّة بين الاثنين، فهذا مما لا يعنينا في بحثنا ذا. ومن هذه الرؤيّة العامّة، ينسحب الأمر على بقية المجالات والمواضيع، ومنها الحُلْقية. فالاشتراكيّة، شأنها شأن الليبرالية، تختبئ خلف كمٍ من الشعارات البراقّة، من أجل تحقيق رؤاها فيما يتعلّق بمختلف مجالات الحياة، فمثلاً تفترض ابتداءً أنَّ تحرير المرأة يبدأ من تحرير المجتمع، وإزالة النظام الطبقي منه، وطبقاً لذلك، نراها تقف ضدّ مفهوم الأسرة، وتعتبره جزءاً من الإرث البرجوازي على حد تسميتها، بل اعتبر بعض الشيوعيّين أنَّ واجبات المرأة المنزليّة تجعل منها خادمة، وتخرجها من دائرة الإنتاج.

حتى الزواج، فقد عارض الشيوعيون الفهم التقليدي للزواج، لدرجة أنَّ بعضهم عدَّه تركَّةً من الملكيّة الفردية، ويجب أن ينهاه، وقد لا تكون هذه الموضوعات خُلُقية تماماً، ولها عناوينها المعروفة، لكنَّ الأخلاق تبقى حاضرة بوصفها إطاراً عام يغلف هذه القضايا.

بشكل عام، فإن الاشتراكية تقف ضد كلّ ما تعتبره من مظاهر البرجوازية. وحتى المسألة الخُلُقية مثلما رأينا، فإنّها تنسف حتى البديهي منها، بهذه الحجّة، وهذا ما يؤكّده (فلاديمير لينين<sup>(١)</sup> - Vladimir Lenin): “بأيّ معنى ننكر الأخلاق وننكر السلوك؟ بالمعنى الذي تبشر به البرجوازية التي كانت تستقُّ هذه الأخلاق من وصايا [الله]. وفي هذا الصدد نقول، بالطبع، إنّنا لا نؤمن [بالله].... إنّ كلّ أخلاق من هذا النوع مستقاة من مفاهيم مفصولة عن الإنسانية، مفصولة عن الطبقات. إنّ كلّ أخلاق كهذه نفيها وننكرها، ونقول إنها تخدع العمال والفالحين، وتغشّهم، وتحشوّ أدمعتهم حشوًّا، وذلك في صالح الملّاكين العقاريين والرأسماليين. إنّنا نقول، إنّ أخلاقنا خاضعة تماماً لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي. إنّ أخلاقنا تتبّق من مصالح نضال البروليتاريا الطبقي.”<sup>(٢)</sup>

وبالعودـة إلى الليبرالية الغارقة في الفردانية المفرطة، فإن الأخـلـاق أيضـاً مـأخـوذـة من الفـكـرةـ الـعـامـةـ، والإـطـارـ الشـامـلـ لهـذـاـ المـفـهـومـ؛ أيـ الحرـيةـ الفـرـديـةـ بـوصـفـهـاـ أـسـاسـاًـ وـمـبـدـأًـ، ماـ يـعـنيـ، أنـ لاـ أـخـلـقـ عـامـةـ تـحـكـمـ المـجـتمـعـ، وـالـأـمـرـ مـنـوـطـ بـالـحـيـزـ الـذـيـ سـيـشـغـلـهـ الـفـرـدـ فيـ هـذـاـ الجـانـبـ. وـمـاـ دـامـ يـتـعـيـنـ

١ - زعيم سياسي ومحرك شيوعي روسي، مؤسس الدولة السوفياتية والمنظر الأساس للثورة البلشفية في بلاده. يعد من أهم زعماء الحركة الشيوعية العالمية، موقع الجزيرة.

٢ - فلاديمير لينين: الأخـلـقـ والأـخـلـاقـ الشـيـوعـيـةـ.

على الدولة أن تكون حيادية تجاه هذا الموضوع، وغيره من المجالات التي تنظمها الليبرالية، فعلى المجتمع أن يكون كذلك أيضًا. لذا، لا غرابة أن يعتبر (جون ستيلور مل-Mill<sup>(١)</sup>) أنَّ مذهب المنفعة العامة هو الأساس المتبين الذي يمكننا من إقامة ليبرالية قوية عليه.<sup>(٢)</sup> قلنا، إنَّ الليبرالية تتمحور حول الفرد، بيد أنَّ دعاتها ذهبوا إلى أكثر من ذلك، حينما جعلوا تأسيس السلطة يهدف -بالأصل- لحماية حقوقه، فالهيكل الليبرالي العام يُبنى على هذه الحرّيات الشخصية للأفراد، والتي لا يجوز حتى للدولة أن تتدخل أو تحدّ منها، وهذا ما يقودنا إلى نتيجة مفادها، إنَّ المجتمع في ظلّها لا تحدُّه مبادئ، ولا غaiات، بل ذلك كله منوط بالفرد فقط.

في هذا الصدد، وفي معرض تعداده للحرّيات، يقول (جون ستيلور مل): ”حرية الأذواق والمساعي الحياتية، بحيث يرسم الواحد منّا خطة حياتية تناسب شخصيته، متحملاً كلَّ ما يتربّب على ذلك من نتائج، دون أيٍّ إعاقة من أقرانه، حتى لو بدا لهم أنَّ سلوكه يتسم بالحمق أو

---

١ - فيلسوف ومحامي اقتصادي إنجليزي؛ يعدّ من رموز المذهب النفعي في الفلسفة وأحد أقطاب المدرسة الكلاسيكية في الاقتصاد.

٢ - خالد عبد العزيز فرج: أساس الليبرالية الأخلاقية.

## الفصل الثاني - المبحث الثاني ٤١

الضلال<sup>(١)</sup>، وهذا ما ينسحب على المنظومة الأخلاقية كلّها، والتي تنحصر ليبراليًا بالفرد، ما يعني غياب المفهوم العام للأخلاق أو الأخلاق العامة عن مجتمع كهذا.

إلى هنا، نكون قد رسمنا تصوّرًا ولو مبسطًا عن الأخقيات التي تصدرها أكثر منظومتين سيدرتا وتنافزتا في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعالم، حيث وصل هذا النزاع إلى مجتمعاتنا، والتي لم تخرج سليمة منه، رغم أنَّه صدام حصل في بيئه بعيدة جغرافيًّا وفكريًّا عن بلداننا بشكل عام. وهذا يعني أنَّ هاتين المنظومتين قد أثَّرتا في بنيتنا الاجتماعية، وهذا ما يهمُّنا الآن، وإنْ كانت سيدرتهما على الجوانب السياسية والاقتصادية في مراحل زمنية مختلفة أوضح، وهذا ما يقودنا إلى القول بوجود خلل في رؤيتنا للكثير من المواضيع، ومنها الأخلاق. فإذا كان القرن المنصرم قد شهد توهُّجًا للشيوعية في العراق وفي كثير من بلدان العالم الإسلامي، ما رسَّخ كثيرًا من المفاهيم الخاطئة التي لا تزال سائدة حتى الآن.

فيما اليوم نجد، أنَّ الليبرالية لم تستغلَ نافذةً إلا ونفذت عبرها إلى المجتمعات، خصوصًا وأنَّها ما تزال هي الحاكمة على المبادئ التي تُسَيِّر البلدان في سياق النظام الدولي؛ نتيجة تبنيها من الدول الكبرى. كما أنَّ لها

---

١ - نقاً عن رجا بهلول: المرأة وأسس الديمقراطية في الفكر النسووي الليبرالي، ص. ٣٣

قابلية التغلغل في جميع المجالات؛ نتيجة الأنفاق المرننة التي تحكمها، مضافاً إلى الأسس النفعية أو البراغماتية التي تقوم عليها هذه المنظومة كلّها، ومع سلطتها على معظم الوسائل الإعلامية العالمية، والمؤثرة في المزاج العام، والمسؤولة عن تصدير القضايا وترويجها لسكان العالم، دون أن ننسى امتلاكها وسائل الترفية الأكثر تأثيراً، وفي المراحل العمرية كافة، ابتداء من الطفولة التي تتولّها شركة «والت دزنی» (The Walt Disney Company)، صعوداً لفترة المراهقة والشباب، والتي تتکفل بها سينما هوليود، مضافاً إلى عدد من الأدوات الأخرى. ما جعلها صانعة للتأثير حول العالم، ومنها بلداننا. وقد ولد ذلك لدينا فهماً مشوّهاً للقضايا العامة، ومنها الأخلاق بالطبع؛ أي فهماً تتصارع فيه إرادتان؛ الرؤية الدينية، والرؤية الليبرالية التي تحاول النفاذ بقوّة إلى مجال الحكم على الأشياء.

إذاً، نحن أمام حقيقة مفادها، إنّ حكمنا على الأشياء، لم يعد نابعاً فقط من هويتنا الدينية أو الاجتماعية، بل من مزيج من هذين الأمرين، مضافاً إلى مدخلات كثيرة من الرؤى الليبرالية والاشراكية وغيرهما. أسمهم هذا التداخل في توليد ضبابية في بعض الأحيان، بالنسبة للأجيال الشابة، خصوصاً تلك التي ترعرعت في خضم هذا التقى التقني، وثورة موقع التواصل الاجتماعي. لم يقف هذا الأمر عند هذا الحدّ، بل أسمهم في نشوء (الأنّا) وتكونيتها، وتضخيمها على غرار الفكر الغربي، بشكل مغاير وغير

مألف في تراثنا السابق وهو يتنا. ويتجلى هذا الأمر ببساطة بنمط (لا عليك سوى بنفسك)، حتى لو ارتكب المقابل أمراً مخالفًا للدين أو الأخلاق أو حتى الأعراف القبلية، وهي ثقافة بدأت بالترسخ منذ زمن ليس بالبعيد. ما علاقة ذلك كله بموضوع البحث؟ ببساطة، كل هذه التراثات والتشوّهات في الجهاز المفاهيمي للمجتمع والفرد على حد سواء، تعزّز - مثلما قلنا - من مفهوم الأنّا، مقابل التقليل والتحجيم من مسؤولية هذا الفرد أو ذاك تجاه المجتمع، وبما أنّ السرّية والكتمان، يمثلان قمة تجلّي هذه المسؤولية حيال الجماعة والدين، وأنّ أيّ تهويّن يطاول هذه المسؤولية، يؤدّي إلى خلل جوهري في الموضوع ذاته، فإنّا من هنا، نفهم الرابط بين الأمرين.

وعموماً، فإنّ الرؤية الإسلامية للقضايا كافة، تشكّل من خلال مصدر سماوي إلهي، وهي بلحاظ ذلك، تنظر للأشياء من منظور خالقها ومبدعها، ما يعني أنها رؤية من صميم المعرفة الحقيقة، ومن ثمّ فهي تختلف مع ما تناولناه سابقاً فيما يخصّ كلتا الرؤيتين: الليبرالية والشيوعية، اللتين تبعان من الفهم المحدود للإنسان، وقصر إدراكه العقلي، كونهما ناتج أفكار وضعية. ومن هذا المنطلق، فإنّ الرؤية الإسلامية للأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه المعادلة، ما يعني أنها مؤطرة ضمن البعد الكوني، باعتبارها جزءاً من منظومة شاملة ومتكمّلة.

لا يميل الإسلام إلى أيٌّ من الجهاتين؛ لا الفرد ولا المجتمع، بل يحذو في ذلك طريق الاعتدال بين المصلحتين، أو حسب ما تستدعيه حيّثيات كل قضية على حدة، في بعض الاستثناءات. ومن هذا المنطلق، يجب أن تكون العلاقة تكاملية بين الفرد والجماعة، لكلٍّ منها حقوق وواجبات على الآخر؛ باعتبارهما نسيجاً متكاملاً، يجب ألا تتقاطع في حيزهما المصالح، وألا يوجد تعارض فيها. وعليه، فإن السرية بوصفها حاجة ضرورية وملحة اليوم، تتطلب تكامل المسؤوليات من المجتمع كله، ومن الأفراد المكونين له؛ كلٌّ من موقعه.

ويتجلى البعد الخلقي في هذه القضية من خلال أمرين: أولهما، مسؤولية هذا الفرد تجاه الآخر والآخرين بشكل عام، ولو في المجال الشخصي؛ أي حفظ الأسرار الخاصة وعدم البوح بها، وصعوداً وهو الأهم إلى الحيز الأمني وما يرتبط به من مخرجات، متمحورة حول كتمان وعدم إذاعة كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تعرُّض الآخرين للخطر. ثانيهما، في غياب الوازع الديني والوطني... إلخ.

تتجلى أهمية البعد الخلقي بوصفه منطلقاً ثابتاً للإنسان تجاه أخيه الإنسان، في ظل عدم اهتمامه بالدافع الأخرى. فلو رأى شخص ما إنساناً آخر تعرَّض لحادث سير، وبدأت النيران تشتعل بالسيارة، مع فقدان السائق للوعي، فهل يتركه يلقى مصيره، فقط لأنَّه غير مؤمن بدين ولا بروابط

الأرض والهوية، ولا تعنيه أي من الدوافع هذه. وتبعداً لذلك، لا يرى في عدم مساعدته أي غضاضة من هذه المنطلقات؟! هنا، إذا لم يحضر الوازع الخلقي ويدفعه للمساعدة، فهناك مشكلة بالأصل في هذا الفرد.

فالدافع الخلقي في جلها فطريّة، نابعة من بداعه التمييز المعقول للإنسان بين الخير والشر، وكون هذا الفعل صحيحاً أم خطأً. وما يقال من تداخل البيئة والعادات في صنع معايير مختلفة بين الشعوب والجماعات للمسألة الخلقيّة، قد يصح في جزئيات معينة، لكن من الناحية الكلية فالمسألة الخلقيّة واحدة، بعض النظر عن الجغرافيا واللغة؛ لأنّها متعلقة بالفطرة بالدرجة الأساس في النواحي الإجمالية، وببعض المكتسبات في الأمور الثانوية وما يتفرّع منها، كونها خاصة بهذه البيئة أو تلك. لذلك وباختصار نقول، إن الدافع الخلقي تكمّن أهميته، في إمكانية استحضاره، في الوقت الذي تغيب بقية الدوافع.

لقد ذكرنا فيما سبق بعض سمات المنظومات الفكرية الغربية، وكيف أنها ترتكز على المنفعة، ضاربة كل المعايير الأخرى عرض الحائط. وهذا الأمر من مساوى الشخصية الحداثوية، والتي يراد لها أن تكون حالة عامة يصطبغ بها كل فرد، وغير مختصة ببيئة معينة أو جغرافيا محددة؛ لأنّها ستحول الإنسان إلى مجرد كيان خالٍ من أي مبادئ تحكمه، ومجرّد أداة مستهلكة في الأسواق العالمية المفتوحة، لا يهمه سوى الأنماط، ولا يفكّر

أبعد مما تصل إليه حواسُه وأعضاوِه الجسدية، ما يجعله طيِّعاً أمام مصالح الأنظمة الاستعمارية الكبرى.

إنَّ ماهية الإنسان الحديث أو ما يسمَّى بالحداثيِّ كما ذكرنا، ذات مساوىَ عدَّة، منها: النفعية وربط الإنسان بها بعيداً عن أي معايير خُلُقية أو دينية. وهذه الظاهرة حديثة كما يشير لذلك المنظرُ الأمريكي (روبرت هييلبرونر-) Robert L. Heilbroner<sup>(١)</sup>، وذلك بقوله: «إنَّ الفكرة القائلة، بأنَّ على الجميع البحث عن الطائق الكفيلة بتحسين أوضاعهم الماديه، لم تكن موجودة لدى الطبقات الدنيا والوسطى في المجتمعات البشرية القديمة.»<sup>(٢)</sup>

بالفعل، لم تكن هذه الظاهرة يوماً ذات جذور تاريخية سوى في الحضارة البابلية، والمصرية، أو الإغريقية، والرومانية فيما بعد، ولم تكن حتى موجودة في العصور الوسطى الأوروبيَّة؛ لأنَّها ولدت مع عصر التنوير، كما يؤكِّد الكاتب ذاته. ولعلَّ السبب في ولادتها في هذا العصر من وجهة نظرنا، أنه وفي إطار الصراع الفكري الذي احتمم في وقته بين الفلسفة والعلم من جهة، والنفوذ الكنسيّ والسلطة الملكية من جهة أخرى، أدى ذلك لجرف المعايير الخُلُقية والدينية التي تحدُّ من هذا المبدأ، وتحول

١ - خبير اقتصادي أمريكي، ومؤرخ للفكر الاقتصادي.

٢ - أحمد الخالصي: المعلم ودوره الجوهري في الإصلاح.

دون بروزه وتناميه. ولعلّ ما يعضد تحليلنا هذا قول (هارولد لاسكي - Harold Laski<sup>(١)</sup> عن نشوء الرأسمالية في الغرب: "كانت طريقة التفكير الرأسمالية مترسّخة في الأذهان، وبشكل ملحوظ، إبان القرن الرابع عشر الميلادي، ولذلك تولّدت نزعة كنْزِ المال والثروات، وأصبحت الحافز الرئيس للنشاط البشري. قبل هذه الفترة، وتحديداً في القرون الوسطى كانت القواعد الخُلُقية التي يرُوّج لها رجال الدين عاملاً في تقييد نزعة كنْزِ المال"<sup>(٢)</sup>.

إذَا، نحن أمام صراع محتمٍ غير مرئي في مسألة الحكم الخُلُقى، مُضمر داخل الفرد، مضاداً إلى مزاحمته للرأوية العامة للمجتمع تجاه هذا الأمر أو ذاك، وهذا ناجم مثلما أسلفنا عن السباق المحموم الذي كان يجري بين المنظومتين الاشتراكية والليبرالية، في التوسيع والهيمنة الفكرية والسيطرة السياسية، والاقتصادية على أكبر عدد ممكن من الدول، ومنها دولنا الإسلامية التي عانت من ذلك بشكل مباشر، وكانت الأكثر تأثراً، لسببين: أولهما، لأنّها كانت دولاً مستعمرةً بالأصل من قبل دول كبرى، فرضت عليها كثيراً من

١ - مفكر سياسي واقتصادي بريطاني بارز في النصف الأول من القرن العشرين، ولد عام ١٨٩٣ وتوفي عام ١٩٥٠. تولى رئاسة حزب العمال البريطاني بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦، وكان أستاداً في كلية لندن للاقتصاد بين عامي ١٩٢٦ و١٩٥٠.

٢ - أحمد الخالصي: المعلم ودوره الجوهري في الإصلاح.

التغييرات في المنظومات التعليمية والممارسات الاجتماعية، ومحاربة القِيم الدينية بشتى الوسائل، من أجل تطويق المجتمعات الإسلامية، وصهرها في مصالح هذه الدول الغربية. ثانيهما، حملت الشيوعية الشعارات التحررية الرنانة من الامبرالية والرجعية؛ من أجل جذب أكبر عدد ممكن من الأنصار، وهذا ما حصل بالفعل؛ إذ انجذب كثير من الأوساط إليها. في المقابل، حاربت الشعارات الإسلامية الداعية للوحدة والتحرر من الدول الكبرى من أجل الاستقلال، وهذا ما جاء صراحةً في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية، والذي انعقد في بتروغراد الروسية سنة ١٩٢٠ : ”في البلدان الإسلامية، تجد الحركة الوطنية أيديولوجيتها قبل كلّ شيء في الشعارات السياسية - الدينية للوحدة الإسلامية، ما يسمح للموظفين والدبلوماسيين في الحاضر باستخدام الأفكار المسقبة وجهل الجماهير الشعبية لمحاربة هذه الحركة (هكذا يلعب الإنجليز مثلًا لعبة الوحدة الإسلامية والوحدة العربية، معلنين أنهم يريدون نقل الخلافة إلى الهند...إلخ، وتعتمد الإمبرالية الفرنسية على «التعاطف الإسلامي»). مع ذلك، وكلّما اتسعت حركة التحرر الوطني ونضجت، تزيح المطالب السياسية الملمسة للشعارات السياسية - الدينية للوحدة الإسلامية. وما يؤكّد ذلك، هو النضال الذي بدأ أخيراً في تركيا من أجل انتزاع السلطة الزمنية من الخلافة.“<sup>(١)</sup>

---

١ - الرابطة الأممية للعمال: المؤتمرات العالمية الأربع الأولى للأممية الشيوعية.

لذلك، فالمجتمعات الإسلامية كانت أمام واقع صعب، تمثل بسيطرة الليبرالية على السياسة في كثير من مفاصلها، من خلال الاحتلال المباشر من قبل الدول الكبرى أو غير المباشر عبر الانتداب. في مقابل ذلك، سيطر التوجه الشيوعي على كثير من النخب في هذه البلدان، كونه جرى تصديره بوصفه فكراً تحررياً من الاستعمار والبرجوازية، ومحاربة الرجعية وغيرها من الشعارات.

إذاء هذه الحقيقة تدخلت كثير من القيم مع بعضها، في الذهنية العامة، وأصبح المنطلق الإسلامي في الحكم على الأشياء مغيباً بحكم الاستعمار الليبرالي، والنحوية الشيوعية، بل جرى إرجاع أسباب التخلف والوصول إلى هذه الحالة، إلى الإسلام نفسه، ما غيّبه أكثر وأكثر، حتى غدت هذه التدخلات في منظومة القيم، من بقايا فكر هنا وهناك، هي الحاكمة على الأشياء، وسبباً في تشتيت الحكم الخلقي الواحد، إلى أشكال عدّة، نتيجة اختلاف الأساس الذي بدأت تستند إليه هذه المنظومة، خصوصاً وأنه أصبح مكوناً من بقايا مفاهيم قبلية وإسلامية وشيوعية وليبرالية.

هنا، تغدو للبعد الخلقي بحدّ ذاته أبعد متفرعة تتصل في مجالات أخرى، كالسياسة والاقتصاد، ومنظومة المعرفة كلّها، فالعودة لمنظومة الإسلامية بوصفها رؤية كونية تتجاوز الوضعية القاصر، وتنظر لكلّ الجوانب من منظور أعلى، وكونها - أي هذه الجوانب - متصلةً غير

منفصلة، يؤدي بطبيعة الحال إلى إعادة الاعتبار للقيم الخُلُقية الواحدة، والتي تحكم وفق معايير محددة، ومسارات واضحة، دون التأثر باختلاف الآراء، والحجج الأخرى، ودون جعل الحكم هذا أو ذاك حبيس الأهواء ودعاة النسبية، ما يعطي قوّة وزخماً للبعد الخُلُقي بوصفه حاسماً وقاطعاً. هذا الأمر سيعود بالفائدة الكبرى على مفهوم السرية، باعتباره مدخلًا بأبعاد مختلفة تمنحه القدرة المطلوبة على تحقيق المراد منه، من خلال الفعالية التي سيعطيها البعد الخُلُقي والمنظفات الشرعية لضرورة الكتمان والحفظ على سرية الأمور الواجب الحفاظ عليها، فالفرد ضمن حيزه الشخصي والمجتمع في إطار هويته الدينية والقبلية، سيشكل أمام مفهوم يعرفه جيداً لكنه كان مهملاً، وسيجد من خلال الدوافع الخُلُقية والشرعية الحاجة الماسة للعودة إلى ممارسة هذا المصطلح، وإحساسه بأن لا مناص منه، خصوصاً وأن النتائج المترتبة على عدم الأخذ به خطيرة جداً تمسّ الأمن بمستوياته المختلفة. فالأسرار التي تنفسّي وتوّدّي إلى إراقة الدماء، مع حرمتها الشرعية، سيرى فيها من ناحية أخرى الجوانب غير الخُلُقية واضحة جداً، تتمثل بكون هذا الفعل شرعاً وأخلاقياً يجب الابتعاد عنه، خصوصاً أنّ الأخلاق بصفتها علمًا يسعى جاهداً لتوضيح هذه المسألة، ألا وهي الخير والشر، كما ذهب إلى ذلك (أحمد أمين)، بقوله: ” فهو علم يوضح معنى الخير والشر، ويُبيّن ما ينبغي أن تكون عليه

معاملة الناس بعضهم بعضاً، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي.<sup>(١)</sup>

كما أن التماشي مع هوس النشر في موقع التواصل الاجتماعي، ومسك الهاتف وتصوير الأحداث وتوثيقها بشكل مباشر من أجل النشر، مع اليقين بخطورة هذا الأمر بالنسبة لأمن الأفراد المستهدفين، وتحكُّم العدو في هذه الواقع، كما حصل مع فصائل المقاومة في فلسطين مثلاً، وكذلك في لبنان، سيجعل من مفترض هذا الفعل مرتكيًّا لمخالفات شرعية وخلقية في آن واحد.

وهنا، بالطبع المقصود من طرح مثالٍ غرَّةً وجنوب لبنان، هو الظرف الزمني لا حواضن المقاومة هناك، والتي برهنت عنوعي كبير، وإدراك للموقف بشكل مثالٍ جدًا.

إذًا، يمكننا إجمالُ هذا المبحث من خلال النقاط الآتية:

١. الشيوعية والليبرالية باعتبارهما منظومتين سيدرتا وتنازعاً في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعالم، ووصل هذا النزاع إلى مجتمعاتنا، والتي لم تخرج سليمًا منه رغم أنه صدام حصل في بيئه بعيدة جغرافيًّا وفكريًّا عن بلداننا بشكل عام.

## ٥٢ السريةُ ضرورةً وجوديةً

٢. تكمن أهمية الليبرالية وخطورتها في كونها ما تزال هي الحاكمة على المبادئ، من خلال تشكيلها للأسس التي قام عليها هذا النظام الدولي؟ نتيجة تبنيها من الدول الكبرى، وخصوصاً بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وانفراد أمريكا بالهيمنة على العالم.
٣. للليبرالية القابلية للتغلغل في جميع المجالات؛ نتيجة الأسواق المرنة التي تحكمها، مضافاً إلى الأسس التفعيلية أو البراغماتية التي تقوم عليها هذه المنظومة كلها، ما يسمح لها بالفاذ حتى إلى المجالات الأكثر عدائية لها، لذلك لا عجب من طرح عناوين كالليبرالية الإسلامية!
٤. أخذت الشيوعية على عاتقها توليّ الجانب الشوري ضدّ الليبرالية من خلال تبني نهج الصراع معها، واستخدمت في سبيل ذلك الشعارات الرنانة لجذب النخب والأوساط الثقافية في المجتمعات، خصوصاً النامية منها، والتي غالباً ما كانت دولاً محظلة، ما أسهم في انجذاب كثير من هذه الأوساط إليها.
٥. تبنّت الشيوعية المنهج العدائي مع الدين، سواء في جانبها التنظيري، من خلال إلغاء الدين والدولة والمملكيّة الخاصة في المجتمع الشيوعي المزمع الوصول إليه بحسب أبجديةّاتها، أم من خلال الواقع العملي الذي اعتبر الدين جزءاً من التخلف والرجعية.

٦. تسرب الفهم الشيوعي والليبرالي للأخلاق إلى المجتمعات الإسلامية، بالتزامن مع الصراع المحتدم الذي جرى بين المعسكرين الشرقي والغربي إبان الحرب الباردة؛ حيث حكمت الليبرالية على الأخلاق من خلال الفكرة العامة لها، والإطار الشامل لهذا المفهوم، أي الحرية الفردية بوصفها أساساً ومبداً، ما يعني أن لا أخلاق عامة تحكم المجتمع، والأمر منوط بالحجز الذي سيشغله الفرد بهذا الجانب، في مقابل وقوف الدولة والمجتمع باعتبارهما طرفين محاذدين إزاء أي ممارسة، وإن لم تكن خلقيّة من قبل هذا الفرد أو ذاك. وبحجّة البرجوازية، وقفت الشيوعية ضدّ إزاء كلّ ما تعتبره من مظاهر هذه الطبقة، حتى المسألة الخلقيّة مثلما رأينا، فإنّها تنسف حتّى البديهيّ منها، فهي تدرج الزواج والأسرة في هذا الوصف.

٧. الرؤية الإسلامية للأخلاق هي جزء من منظومة متكاملة، تتشكّل من خلال مصدر سماويٌّ إلهيٌّ، وهي بلحاظ ذلك، تنظر للأشياء من منظور خالقها ومبدعها، ما يعني أنّها رؤية من صميم المعرفة الحقيقة، بخلاف المنظومتين السابقتين، اللتين أخذت كلّ منهما جانبًا معيناً وجزءاً محدّداً عملت عليه.

### المبحث الثالث: البعد السياسيُ

تتعدّى السياسة الفهم الشائع المتعلق بالأحزاب والمسائل المرتبطة بالحكم، فهذه ممارسات سياسية تندرج تحت هذا العنوان، ولا تتعدّاه لتعبر عن المفهوم الكلّي، ذلك أنّ السياسة أعمّ بكثير، ومن الصعوبة بمكان، وضع الحدود الدقيقة لها، خصوصاً في الوقت الحالي، فهي متداخلة بكل المجالات تقريباً، ولا يمكن تصور وجود شيء يخلو منها. فالتطور التقني الحاصل باستمرار، وتقديم أساليب السيطرة والإخضاع التي تقوم بها الأنظمة السياسية الكبرى، مضافاً إلى الهيمنة بمستوياتها المختلفة، تفرض هذا التداخل الحاصل.

من هنا، لا يمكن نهائياً فصل السريةَ بوصفها ممارسة عن المنحى السياسيِ، سواء كانت بجانبها التطبيقي أم العملي. فإذا كان كتمانُ الأسرار من باب المحافظة على النفس من السلطات الجائرة القائمة، فقد اتّبع هنا أسلوبَ المهادة والتعايش مع الواقع بوصفه وجوداً فعلياً، بغضّ النظر عن مدى شرعنته، ومن باب آخر هو معارضته سياسية صامتة كما يمكن أن نسمّيها... إلخ.

من هذا الباب، تتكشّف لدينا العلاقة الوثيقة بين السريةَ بوصفها ممارسة فعلية، والسياسة بشكل عامٍ، فهذا الأمر واضح وجليٌ سواء من خلال الأمثلة التي سقناها أم غيرها، لكن ما يهمُنا هو الحجم السياسيُ الذي

يحمله هذا المفهوم من ناحيته العملية، وإلى أي مدى هو مؤثّر، سواء من ناحية الفاعلية التي سيركها في مسألة الحفاظ على الأسرار بحد ذاتها، أم من خلال الحيز الكلّي الذي من الممكّن أن يشتعل عليه.

### أولاً: الحجم السياسي للسرية:

يخربنا التاريخ -بصفته مدوّنة حيّة، وتعبيرًا واضحًا عن معالم الماضي في الغالب- كثيراً عن مجتمع وتنظيمات سياسية، انتهت المنحى السري في عملها، ومارست نشاطها بعيداً عن أعين السلطات القائمة آنذاك، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل كانت مؤثّراً فعليّاً في كثير من الأحداث، وفي مراحل مختلفة ومفصلية، ولم تمنع السرية خروج هذا الأثر إلى الخارج، بل في بعض الأحيان أسهمت هذه الممارسة بالأصل في تعزيز هذا التأثير. يكفي هنا أن نذكر المرحلة السرية للدعوة النبوية، وكيف كانت مهمّة في تكوين القاعدة الصلبة التي انطلق منها النبي محمد ﷺ فيما بعد، وتجنبنا قبل كلّ شيء للبيئة المحيطة في ذلك الوقت، التي كانت معادية لتوجهات كهذه. لقد وفرّت السرية هُنّا الانطلاق المثالى، والطريقة الآمنة التي أسّست لاحقاً لجماعة إسلامية أكثر صلابة "استمرّ النبي ﷺ يدعو إلى دينه سرّاً مدة ثلاثة أعوام. فهو في هذه السنوات عمداً إلى بناء الكوادر وإعدادها بدل توجيه الدعوة إلى عامة الناس، فإنَّ

اعتبارات معينة في ذلك الوقت كانت توجب ألا يجهر بدعوته، ولا يعلن عن رسالته، ويكتفي بالاتصالات الفردية السرية ويدعو أشخاصاً معينين إلى دينه.<sup>(١)</sup>

كذلك المنحى الذي أخذه كثير من أتباع أهل البيت عليهم السلام، نتيجة بسط السلطات القائمة آنذاك نفوذها، وما رأيناه بشكل واضح وجليل حينما تحدّثنا عن التقية، من أنَّ المسار السري الذي جرى الأخذ به، أسهم بشكل مباشر وكبير في تعضيد الشيعة بوصفهم كياناً داخل المجتمع الإسلامي كله، سواء من خلال تنمية الجماعة وزيادة الأعداد بالصورة الأكثر صواباً، أم من خلال تأمين حياة الأفراد، مع الاستمرار على المذهب، والتمسّك بالتعاليم الدينية الواردة عن النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه من خلال أهل بيته عليهم السلام.

وهناك كثير من الأمثلة، بعضها ذو منحى سلبي، وقد اتّخذ في ما بعد طابعاً انتقائياً ودموياً كما، فعل العباسيون في بداية دعوتهم، والتي اتسمت بالكتمان، والحفاظ على الخطوط السرية لجماعاتهم، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل عمدوا إلى المراوغة والتخفّي عن سلطة بنو أمية، من خلال شعارات مقدّسة تهمُّ المسلمين، حينما رفعوا شعار الرضا من آل محمد؛ بغرض جذب الشيعة وأكبر عدد من الأمة لنصرتهم، في سبيل إنجاح سعيهم

---

١ - شبكة المعارف الإسلامية الثقافية: الدعوة السرية ودعوة الأقرئين.

إلى إزاحة البيت الأموي، وتوليّ الحكم. ”لقد كان العباسيون يمثلون فصيلاً ثوريّاً مختلفاً... فثوراتهم استمرّت لسنوات طويلة في سرية تامة، لا يُعرف عنها إلا القليل، ولكنّها كانت تعمل من خلال الدعوة لشرعية جديدة، وهي الدعوة لآل محمد، دون تخصيص... وذلك حرصاً على مساندة الشيعة... لإزالة مُلك بني أميّة أوّلاً، فضلاً عن خطورة الإفصاح عن الهويّة السياسيّة الجديدة على الساحة الثوريّة، حتى لا يقوم بنو أميّة بالقضاء عليهم“.<sup>(١)</sup>

كما كانت هناك تنظيمات أخذت طابعاً فكريّاً سريّاً، ولم يجر الكشف عن هويتها في وقتها؛ حيث مارست نشاطاتها بكمان شديد، ومع ذلك ما زال تأثيرها قائماً بشكل أو بآخر، رغم مرور مئات السنين، بل ما يزال الشك في هويتها إلى الآن، مثل جماعة (إخوان الصفا) التي قدّمت رسائلها الشهيرة في العلوم المختلفة، دون معرفة أسماء أعضائها أو مؤلفي هذه الرسائل، كما يشير إلى ذلك صراحة (طه حسين)، بقوله: إن الذين كتبواها ”جماعة لا نكاد نعرف منهم أحداً؛ لأنّهم كانوا يعملون من وراء ستار، وكانتوا يعملون لغرض سياسي قبل كل شيء، فهم كانوا خصوماً للنظام السياسي القائم في بغداد، كما لم يكونوا أنصاراً مخلصين للنظام السياسي

---

١ - عبد الرحمن بن سعود: دعوة الرضا من آل محمد.

القائم في القاهرة.“<sup>(١)</sup>

وامتدَّ الجدال عن هذه الجماعة إلى وقتنا الحاضر، وكانت سبباً مباشراً في حصول الخلافات الفكرية والعقائدية في طبيعتها. ولعلَّ النقد الذي وجهه (جورج طرابيشي) لمشروع (محمد عابد الجابري) الفكري، المثال الأوضح على هذه الحالة. دون الخوض أكثر في (إخوان الصفا) أو غيرهم ممَّن تطرقنا إلى ذكرهم - إذ ليس هذا موضوعنا - نقول: إنَّ هذه الحالة موجودة في التاريخ، وما تزال حاضرة، لكن في مجالات عده، منها تنظيمات اتَّخذت طابعاً مغايراً للغاية التي وضع لأجلها هذا الكتاب، مثل العصابات المسلحة التي انتهت ببدأ الاغتيالات والعنف المسلَّح، والقتل والتدمير.

والأمثلة كثيرة على هذه الجماعات، وأخرى سلكت الطرق الملتوية والوسائل غير الشرعية للتأثير في الدول والمجتمعات، وهذا ما لا يعنينا بالتأكيد؛ لأنَّ الغاية من الموضوع برمتها ليس التأصيل لجماعات سرية واستخدامها في تحقيق المصالح مهما كانت، بل هو التأكيد على أهمية الكتمان والمحافظة على السرية قدر الإمكان، في التعامل مع العدو، الذي تطورت أساليبه وأدواته بشكل مخيف جدًّا، وانتشرت في كل مكان

---

١ - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ص ٩.

تقريباً، كما لو أنه بدأ يستخدم كلّ ما هو قابل للاستعمال البشري في سبيل التجسس والحصول على المعلومات، بغرض تحقيق أهدافه التوسيعية، والقضاء على كلّ من يحاول أن يعرض طريقه، في سبيل ذلك.

إذاً، الحجم السياسي للسرّيّة تاريخياً، كبير جداً؛ لأنّه يكاد يكون ملزماً لأغلب المراحل التاريخية التي مرّت على البشرية. فما دام هناك قلة مستضعفّة أمام سلطة جائرة، أو أمّة مستعبدة من سلطان ظالم، ستجد المنحى السرّي حاضراً بقوة، بل يكاد يكون أكثر الوسائل نجاعة ووضوحاً في محاربة الواقع المفروض، ومحاولة التخلص من الطاغوت الجاثم على الحكم.

لقد كانت السرّيّة أشبه بحماية آنية من البطش، سواء السياسي أم العقدي، ومساراً وقائياً يحفظ هذه الجماعة أو تلك من عيون السلطة، ويؤمّن لها تنمية نفسها بعيداً عن ملاحقة أجهزة الحكم. ولعلّ السؤال الأهم: هل بقيت هذه الحالة مستمرة إلى الوقت الحاضر؛ أي ثنائية المنحى السرّي في ظل السلطة الظالمة؟

يمكن أن تكون الأشكال القديمة لهذه السلطة قد اضمحلت، وإن كان بعضها لا يزال موجوداً في أماكن معينة وبأسماء متعددة، لكنّ الفحوى لا يزال حاضراً بقوة، ويكاد يكون صفة جامعة لكثير من الأنظمة القائمة في العالم، بغض النظر عن كونها ديمقراطية أو ملكية، اتحادية أم فيدرالية،

## ٦٠ السريةُ ضرورةً وجوديةً

وغير ذلك من التصنيفات السائدة، وإن تلطّت خلف أشكال تبدو مغايرة له. هذا ليس رأياً خاصاً، بل هو واقع تكشفه الحوادث باستمرار، مضافاً إلى تمظُّرها في الجانب النظري أصلاً.

ولعلّ الديمقراطية اليوم مثال صارخ على ذلك، لكونها شكل الحكم الأكثر قبولاً في المجتمع الدولي، وذلك متأتّ من تناغم هذا المصطلح مع توجّهات النظام الدولي المفترضة. وهذا ما يدلّ عليه التدعيم المستمر لمفهوم الديمقراطية من قبل المنظمات، وعلى رأسها الأمم المتحدة التي تقول في هذا الصدد: ”الديمقراطية إحدى القيم الأساسية للأمم المتحدة. وتدعم الأمم المتحدة الديمقراطية من خلال تعزيز حقوق الإنسان والتنمية والسلام والأمن. وخلال ٧٥ عاماً منذ توقيع ميثاق الأمم المتحدة، بذلت الأمم المتحدة الجهد لدعم الديمقراطية في جميع أنحاء العالم أكثر من أيّ منظمة عالمية أخرى.“<sup>(١)</sup>

ومن المفترض في ظلّ شكل حكم كهذا، يجري الترويج له على نطاق واسع؛ باعتباره الأكثر مثالية والأفضل لسّكّان دول العالم، أن تنتفي مسألة الظلم، وأن يكون هذا بالفعل معبراً عن رأي الشعب، لكن هل فعلاً تحقّق ذلك؟ يكفينا النظر حولنا، لنرى الإجابة واضحة، سواء من خلال الدمار

---

١ - الأمم المتحدة: الديمقراطية.

والقتل والاستعمار الذي تسبّب به الدول الديموقراطية الكبرى، أم من خلال نشر الديموقراطية في بلدان العالم، بشكل إجباري، ما ولد كثيراً من المشاكل بل هدد وجود هذه الدول بالأصل. والمصاديق كثيرة هنا، ناهيك عن استخدام هذا الشكل من الحكم باعتباره استراتيجية مستمرة للعقل السياسي الأمريكي؛ لأنَّه يرى في ذلك مصلحة له!

وهنا نصل إلى النقطة الأهم، وهي أنَّ الديموقراطية هي أداة ووسيلة مستخدمة وفاعلة بيد الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، ما يعني وبساطة وبعيداً عن منطق المؤامرة، أنَّها سوطٌ بيد العدو. هذه حقيقةٌ من الحقائق التي قد تجيب ببساطة عن السؤال المحوري: لماذا أمريكا ما تزال مهيمنة على العالم؟ فالديمقراطية إذًا، ذات جوهر مُغاير تماماً لمعناها الشائع، ما دامت بالدرجة الأساس هي أداة استراتيجية بيد هذه الأنظمة، وفيما يتعلق بكونها تعبِّر عن رأي الشعب في اختيار الحكم وغير ذلك، من خلال الانتخابات.

**ثانياً: وسائل الإعلام ودورها في تكوين خيارات الشعوب**  
في البدء، علينا أن نذكّر بنقطة مهمة، وهي تأثير وسائل الإعلام في اختيارات الناس عبر الدعايات المدروسة أو الإعلانات المُوجَّهة، وهذا ما هو واضح في التجارة والاقتصاد، ولكنَّ الأمر ذاته يحدث فعلياً في

السياسة. من هنا، نستطيع الانطلاق في الإجابة عن مكامن هذا التأثير، عبر مراقبة اتجاه بوصلة الإعلام، سواء كان في داخل البلد أم خارجه. وهذا الإعلام بدوره ينقسم مثلما هو معروف لدى الأغلب، بحسب الجهات الداعمة. ولا يكاد يخلو بلدًا تقريبًا من وجود وسائل إعلام تعمل بالضد منه، وممولة من قبل أعدائه، وهذه حقيقة ماثلة بغض النظر عن مدى فعالية هذه الوسائل أو تلك. يدخل الإعلام من هذه البوابة لتجير آراء الناس خدمةً للجهة التي يعمل لحسابها، خصوصًا مع وجود هذه المساحة التي وفرتها مواقع التواصل الاجتماعي، وتمدد الحيز الذي تشغله هذه الوسائل، ما سمح لها بتوسيع قاعدة الجماهير، بالتزامن مع اتساع رقعة تأثيرها فيهم.

لقد سمح تعدد النوافذ التي فُتحت على الشعب، بتحكم أكبر من جانب هذه الوسائل في توجُّهاته واختياراته، عبر الأساليب النفسية التي تُمارس بالدعائية الإعلامية. والمثال هنا هو ما جرى في انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ٢٠١٦، وفضيحة شركة (كامبريدج أناليتيكا) مع (دونالد ترامب- Donald Trump)، وسرقتها لخمسين مليون حسابٍ أميركيٍّ في وقتها، بغرض التأثير في آرائهم وتوجُّهاتهم في الانتخابات حينها. صرَّح (كريستوفر ويلي- Christopher Wylie) الذي عمل مع أكاديميًّا من جامعة كامبريدج بغرض الحصول على البيانات، لصحيفة “أوبزرفر”:

”استغللنا فيسبوك لجمع بيانات ملايين الأشخاص. وبنينا نماذج لاستغلال ما نعرفه عنهم واستهداف نوایاهم الخفيةة. كان هذا هو الأساس الذي بُنيت عليه الشركة بأكملها.“<sup>(١)</sup>

ولم يتسم التوقف عند هذا الحد، بل جرى فيما بعد توجيه الاتهام لدول خارجية بالتدخل في الشأن الانتخابي، وأعقب ذلك جلسات استماع واستجواب لمسؤولين في فيسبوك وتويتر، أمام مجلس الشيوخ. ”وقالوا في شهادة أمام لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ، إنهم استغرقوا وقتاً طويلاً جداً للتعامل مع مثل هذه الحملات التي أدّت إلى خسارة المرشحة هيلاري كلينتون وفوز الرئيس دونالد ترامب. وقالت شيريل ساندبرغ؛ رئيسة العمليات في الفيسبوك في جلسة استماع لجنة المخابرات، إن الشبكة الاجتماعية كانت بطيئة للغاية في التعامل مع مشكلة التدخل في الانتخابات.“<sup>(٢)</sup> ولعل التصریح الأخطر هو الذي حمله الرئيس التنفيذي لشركة تويتر في وقتها، والذي جاء فيه: ”إن موقع التواصل الاجتماعي كانت غير مستعدة لمواجهة عملية تسليح النقاشات (تحويلها إلى أسلحة

---

1 - C. Cadwalladr & E. Graham-Harrison: 50 million Facebook profiles harvested for Cambridge Analytica in major data breach. The Guardian.

٢ - بي بي سي عربي: فيسبوك وتويتر: أخفقنا في منع التدخل في الانتخابات الأمريكية.

## ٦٤ السريةُ ضرورةً وجوديَّةٌ

في الحرب على الولايات المتحدة).<sup>(١)</sup>

نستنتج من هذه الحادثة وغيرها، أنَّه لا يمكن للديمقراطية أو أيٌّ شكل آخر من الحكم، أن يكون معيَّراً حقيقةً عن رأي الشعب في اختيار من يحكمه، ما دامت هناك وسائل عدَّة، سواء إعلامية أم تقنية وغيرها، تؤثِّر بشكل جوهري في هذا الاختيار، وتفرض عليه الوجهة التي يتبنَّاها.

وبالعودة إلى الموضوع الإسلامي، فإنَّ الأبعاد السياسية للسرية ما زالت محافظَةً على قيمتها العليا، ولم تقل باختفاء مظاهر السلطة القديمة. ويمكن أن يجري قياس الحجم السياسي للسرية، من خلال الفاعلية التي تمنحها في العمل، بعيداً عن العلانية المفرطة التي تعمُّ أغلب النشاطات السياسية السائدة في الوقت الحاضر، دون الكشف عن الهوية الخاصة بهذا العمل أو ذاك للحيلولة دون استهدافه، وحتى لا يجري العمل بالأصل عليها بأيٍّ صورة كانت.

في المقابل، يعطي الكتمان والمحافظة على الأسرار اليوم رونقاً خاصاً للعمل، لكونه في ظلٍّ هيستيريا النشر التي احتلَّت المجالات كافة، عملة نادرة، وشيئاً جاذباً، وهذا بحد ذاته يشكل قيمة تعزَّز من اتخاذ المنحى السري في العمل.

---

١ - بي بي سي عربي: فيسبوك وتويتر: أخفقنا في منع التدخل في الانتخابات الأمريكية.

والنشاطات التي تُمارس في الحِيّز الذي يشغلها هذا المفهوم، أو في المساحة التي يمكن أن يشغلها، تتمثل بالآتي:

١. فصائل المقاومة الإسلامية، وهو متَّبع إلى حدٍّ ما في أغلب تنظيماتها، لكنْ مع التطور الحاصل في التقنيات، واتساع نشاطها في مجالات مختلفة، يجب هنا أيضًا أنْ يتَّسع مفهوم السرية والكتمان لديها بالشكل الذي يواكب هذا التطور، وهذه المفاصيل كافة.
٢. حاضنة المقاومة، فحاضنة المقاومة، مقاومة بحدٍّ ذاتها، خصوصًا أنَّ العدو دائمًا ما يركِّز عليها، سواء بضرب هويتها في غير فترات الحرب، أم ممارسة التدمير والقتل الهائلين أثناء القتال، وذلك في محاولة منه للفصل بين الحاضنة الشعبية والمقاومة. لذلك، من الضروري أن تتحصَّن الحاضنة بالكتمان بالقدر المطلوب. وغالبًا ما يتزامن الوقت المناسب لهذه الخطوة، مع الأحداث الأمنية، سواء في الأيام العاديَّة -التي تشهد خروقات، من اغتيالات وغيرها، فيلزم حينها عدم الخروج عن الرواية الرسمية للمقاومة، والمحافظة على وحدة الموقف، من خلال عدم الانجرار خلف شهَيَّة التوثيق لهذه الأحداث، كأنَّا في سباق صحفى، حتى لو كان مكان الحادث هذا بالقرب من

## ٦٦ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

الأماكن السكنية- أم في فترات الحروب والنزاعات المسلحة مع العدو، فهذا الوقت بالذات يتحدد فيه مدى فاعلية الشعور بالمسؤولية تجاه هذه القضية المهمة، وهي مقاومة العدو. والحاضنة هنا، يقع على عاتقها تحمل مسؤولية كبيرة، تتمثل في حماية الخط الخلفي للمجاهدين، والعمل على تقويتهم، مضافًا - وهو الأهم - إلى المحافظة على هويتهم من خلال عدم الكشف عنها، أو تصوير الخطوات التي يقومون بها، في حال حصولها بالقرب منهم. فضلاً عن الالتزام بعدم الخروج عن التقديرات الرسمية، سواء للضحايا أم غير ذلك، من أجل عدم منح العدو انتصاراً بأيِّ شكل كان.

لا يقتصر الكتمان والحفظ على المعلومات، على الجانب الأمني والعسكري فحسب، بل يمتد ليشغل حيزاً سياسياً مهمّاً، وهو أنه ينصبُ على جانب المفاوضات، عبر التكتُّم والمحافظة على سرية الأدوات، أو بتعبير آخر الأوراق الرابحة التي يمكن أن تكون ذات فاعلية في مسار التفاوض، خصوصاً ما إذا كان هنالك أسرى، مثلما هو حاصل حالياً بين حماس والكيان المؤقت. في جانب آخر تؤدي عدم إذاعة المعلومات حول جوانب التفاوض إلى تعزيز قوة المفاوض، في قبالة العدو، والتعضيد من قوة الشروط التي يمكن أن تُفرض عليه.

بالقياس العام على البلدان الإسلامية، فإن السرية واجتناب الإذاعة في وسائل الإعلام أو الفضاء الافتراضي، يندرجان في سياق مقاومة العدو، وفق المعنى الوقائي، وتعطيل أدواته المتطرفة، سواء في تقنيات الاتصال والتواصل، أم في المجال التكنولوجي. وهذا بحد ذاته موقف سياسي يعبر عن إرادة شعبية لمجابهة الأنظمة الاستعمارية ومصالحها، ويعبر في الوقت ذاته عن وعي سياسي حقيقي وفاعل من قبل الأمة بالأخطار التي تعرّض لها، ما يجعلها رقمًا صعبًا في المجتمع الدولي، لا يسهل التلاعب به، أو الهيمنة عليه.

يشكّل هذا المفهوم، عاملاً غير مباشر في الحفاظ على الأمن القومي للدول، من خلال الحفاظ على سرية الأحداث الجارية، وعدم توسيعها ونشرها بشكل عشوائي. فبعض هذه المعلومات قد يكون مهمًا ولا يصح خروجه إلى العلن؛ لأنّه قد يشكّل مواداً ضرورية تستفيد منها بقية الدول للإضرار بهذا البلد، أو تكون بحد ذاتها متعلقة بالأمن، ولا يصح حتى الإفشاء بها إلى المجتمع كله. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فقد أدى انغماس الناس في النشر المفرط على موقع التواصل الاجتماعي، إلى سقوط عناصر المؤسسات الأمنية في هذا المطلب الخطير، ما سبب عدداً من الأضرار التي مسّت هذه المؤسسات، وبعضها تسبّب بخروقات أمنية على مستوى خطير.

## المبحث الرابع: البعد التوعوي: السريةُ مسؤولية تجاه المجتمع

في خضم نفاذ الفلسفات الغربية إلى بنية المجتمعات الإسلامية، والعراقية منها على وجه الخصوص، تبرز المسؤولية تجاه المجتمع بصفتها قيمةً علية، وتحدّ بارز، خصوصاً أن هذه الأيديولوجيات أسهمت في تفكيك البنى الجماعية للمجتمعات، وتصدير الفردية باعتبارها حالة عامة، ومساراً أصحًّا للإنسان. جاء ذلك بالتزامن مع تسرب المادية إلى التعاملات، سواء في الحيز الشخصي أم ضمن الفضاء العام. وبغضّ النظر عن كيفية تسرب هذه الفلسفات وصيرورتها جزءاً مفروضاً في الحيز العملي والنفسي في الغالب، فإننا إزاء واقع يحمل هذا الشعور؛ أي المسؤولية تجاه الآخرين.

قد تبرز هذه المسؤولية في مجتمعاتنا على المستوى العام، لكن من خلال ما نستطيع تسميته بالطفرات الوقتية، المرتبطة بمناسبات روحية ودينية، كما يحدث مثلاً في عاشوراء؛ حيث تجد أن هناك شعوراً بهذه المسؤولية. وهنا نتحدث على المستوى العام، وهو ما يستثنى الحالات الخاصة، والتي تجد عندها هذا الشعور بشكل دائم، نتيجة الارتباط الحقيقي بالله والتحلي بالقيم الإسلامية بشكل حقيقي على المستوى النفسي والشخصي، وكذلك من خلال التعامل مع الآخرين.

في إحياء القضية الحسينية ثمة وجود فعلى للشعور بالمسؤولية الجماعية، وهذا متّأثّ بالطبع، من خلال المفاهيم التي حملتها النهضة الحسينية، وهي متعارفة من قبيل: رفض الظلم والخروج عليه... إلخ. لفعل الإحياء لهذه القضية ذاتها أهمية كبيرة متمثلة في كونها تسهم في الحفاظ على المبادئ والقيم التي حملتها هذه النهضة. فهذا الاستذكار المرتبط بشعائر تلامس الوجدان الروحي للمجتمع، وتكرّره بشكل مستمرّ وفق مواعيده معلومة، من شأنه ترسّيخ القضية تدريجيًّا في الوعي الجماعي. كذلك تؤدي هذه العملية إلى إضفاء العامل الاجتماعي على القضية، من خلال تجذرها هي الأخرى في بنيته، ما يعني أنّ هذه القضية من منظور الناس لم تعد قاصرةً على إطارها الأول، بل متّسخة في ذهنّيتهم العامة، من خلال صيرورتها جزءًا من سلوكياتهم، والتي لا تُمارس فقط بغرض الوازع الديني (الثواب) فحسب، بل لأنّها عنصر مهم في هويتهم، ولهذا نرى الملتمّ وغير الملتمّ حاضرين في إحياء المراسم.

نجد أن هناك شعورًا بالمسؤولية، لكنْ هل هو مستمرّ بشكل دائم؟ والإجابة - مع الأسف - كلا، وهذا ما يقودنا لمنحي آخر بعيدٍ عن موضوع هذا الكتاب، وهو المتعلّق بالرکون إلى العاطفة فقط لا غير، في المسائل الدينية والروحية عمومًا، وإهمال الجوانب الجوهرية الأخرى، والتي يغضّ الاهتمام بها ديمومةً الارتباط بالقضية على طول الخط.

التعامل العاطفي مع القضايا الدينية حولنا إلى مجتمع مسلّم بالافتراض؛ أي بالنشأة دون الاكتساب اللاحق، وبالبداية دون المعرفة، ما جعل علاقتنا بديننا بالمجمل، تُبنى على أساس عاطفي لا معرفي. ولغرض معرفة مُخرّجات البناء على هذا الأساس، نرى لزاماً التعريف به، فالعاطفة مفهوم مبسط عن الحالة الذهنية المؤثرة في أحاسيس الإنسان، نتيجة الاستجابة الفجائية لمؤثر ما. وبالتالي فإنَّ توافر ظروف من شأنها إحداث اهتزاز فجائي في الجهاز العصبي، على أن تكون الأسباب في هذه الحالة ناجمةً عن حادث، أو قصّة، أو موقف... إلخ، لا وجود فيه للتراتبية المنطقية في توقُّع وقوعه، فتتشكّل هذه الاستجابات بعيداً عن سلطة العقل مكوِّنةً (العواطف). وتبعاً لهذا التعريف، فإنَّ طبيعة العلاقة ستظهر في الأوقات الحرجة؛ لأنَّها ستكون خاضعة للاستجابات الفجائية، فيما تغطُّ في سبات بقية الأوقات، أو في الحالة الطبيعية.

كما أنَّ استشراء الرؤى المادّية والعلمانية، وخصوصاً فيما يتعلّق بإشاعة فكرة الدين بوصفه منظومة محصورة في علاقة الفرد بربّه، جعل المجتمع يعيش حالةً من الفصل المتكرّر للدين عن تعاملاته فيما بينه، وكذلك نظرته للأشياء. هذه الأمور وغيرها، تسهم مع مرور الوقت في وضع الدين على رفوف النسيان والتناسي، وصولاً إلى حالة من المفارقة الفاضحة بين المبدأ المدعى المستمدّ من الانتماء للدين، وبين واقع ميدان التعامل.

إذاء ذلك، أصبحت هذه المسؤلية تظهر بشكل مؤقت؛ لأنّها ارتبطت مباشرة بالمناسبة، لا من حيث المفاهيم والمبادئ التي تحملها، بل من جهة توقيتها، وهذا ما يُفضي إليه العامل العاطفي وحده، حينما يحضر دون غيره من العوامل الأخرى.

وبالعودة إلى المسؤلية الاجتماعية، فإنّ ما نقصده منها ليست التعريفات التي ربطتها بالمؤسسات والشركات، خصوصاً وأنه في الميدان الباحثي غالباً ما يجري ربط المسؤلية الاجتماعية بمجال الاقتصاد ورجال الأعمال والإدارة. فقد "تركّزت معظم مناقشات المسؤلية الاجتماعية في المفهوم الأصلي الذي اقترحه Bowen... والذي يعدّ أول من صاغ مصطلح المسؤلية الاجتماعية، بحيث يرى أنّها تشير إلى التزامات رجال الأعمال لمتابعة تلك السياسة..."<sup>(١)</sup>.

وبموازاة هذه التعريفات التي ركّزت على الجوانب المحصورة في مجالِ الاقتصاد والأعمال، من خلال عمل الشركات ومسؤوليتها الْخُلُقِيَّة تجاه المجتمع وقضاياها، أو في مدى فعالية هذه المؤسسات في تحمل مسؤولياتها تجاه المواطنين، فقد تضمنَت بعض تعريفات هذا المفهوم الجانب البيئي، كونه جزءاً مهماً وجوهرياً من مسؤولية هذه المؤسسات

---

١ - سعاد عبود وجمال بن سليمان: المسؤلية الاجتماعية وأهميتها في تعزيز قيم المواطنة في ضوء إدارة الأعمال والمؤسسات، ص ٢٦١.

تجاه الناس. لكن بكل تأكيد، ليس هذا ما نقصده، وما نرمي إليه في هذا الكتاب؛ لأننا لا نخاطب المؤسسات، أو رجال الأعمال، أو شركات محلية أو دولية، بل الفرد بوصفه شخصية لها حقوق والتزامات، ينبغي القيام بها، ليتماشى مع المجتمع، والذي بدوره -أي الفرد- سيكون مؤهلاً للمضي قدماً في تطوره والحفاظ على هويته.

إن المسؤولية الاجتماعية هنا، هي بالدرجة الأساس شعور الفرد بالانتماء للجماعة وللهوية التي تصطبغ بها، ومن ثم البناء على ذلك في رسم معالم هذه المسؤولية وتحديد أطرها العامة.

هل يمكن بالأصل تحويل هذه المسؤولية من الحيز الجماعي إلى الفردي؛ أي نقلها من الفضاء المؤسسي وجعلها جزءاً من واجبات هذا الفرد؟

يمكن جدًا؛ بالنظر إلى مسألتين مهمتين في تحويل هذا المفهوم إلى النطاق الشخصي:

1. المسألة الأولى متعلقة بالأساس النظري الذي لم يمنع من هذا التحول ونقل مسار المسؤولية من نطاق إلى آخر، فالتنظير لهذا المفهوم قائم بالدرجة الأساس على الشعور بهذا الالتزام الخلقي تجاه المجتمع، من قبل هذه المؤسسة أو تلك الشركة. وهذا الأمر بالذات غير مختص بحِيز دون آخر، وهو شعور

متأثراً من الأفراد المكونين لهذه الشخصية القانونية أيًّا كان شكلها. ومن ثمَّ لا يوجد أي مانع من أن يكون هذا الإحساس والشعور متولِّداً ضمن الفضاء الخاص للفرد.

٢. المسألة الثانية، قال تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» [النحل: ١٢٠]. وصف الله - تعالى - إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف العظيم، وهنا لا نقيس على ذلك، بل هو تتوبيخ وتشجيع للجهد الذي يمكن أن يقوم به الإنسان ولو كان منفرداً، فيصبح عمله ينchez عمل جماعة مجتمعة؛ “أَيْ قَائِمًا مَقَامَ جَمَاعَةٍ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، نَحْوُ قَوْلِهِمْ: فَلَانِ فِي نَفْسِهِ قَبْلَةٌ إِنْتَهِي. وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا نُقْلِلُ عَنْ أَبْنَى عَبَاسٍ، وَقَدْ يَقُولُ عَنْهُ الْإِمَامُ الْمُقْتَدِيُّ بِهِ، وَقَدْ يَقُولُ إِنَّهُ كَانَ أُمَّةً مُنْحَصِّرَةً فِي وَاحِدٍ مَدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَرْضِ مَوْحِدٌ يُوَحِّدُ اللَّهَ غَيْرَهُ.”<sup>(١)</sup>

فالفرد إذا أخلص في عمله، وأقبل عليه بالطريقة الصحيحة والمثالية، صار بالإمكان أن توازي جهوده جهوداً مجموعه كبيرة من الناس. فالعمل هنا لا يقياس وفق تعددية الشخصوص بقدر ما يجري الاعتماد على النية والتوكُل في هذا العمل أو ذاك. ومن ثمَّ يأتي في هذا الباب تحمل

---

١ - السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٣٦٨.

المسؤولية تجاه المجتمع كله. ووفق هذه المعطيات وغيرها، بات واضحًا بالنسبة لنا، أنه بالإمكان أن تكون المسؤولية الاجتماعية منوطة بالفرد لا بالمؤسسات والشركات فحسب.

سبق أن ذكرنا سالفًا أهمية السرية اليوم باعتبارها مساراً جوهريًا يُسهم في الحفاظ على كثير من الأمور، لعل في مقدمتها النفس والدماء، ومن ثم الوجود الواقعي لكيان المجتمع أو الجماعة، خصوصًا وأننا نعيش اليوم في خضم انعدام الحدود؛ حيث الفضاءاتُ مفتوحةٌ على مصراعيها تلتقي فيها الهويات وتتصارع، والتأثير في الغالب قد يكون من نصيب الجهة التي تمتلك هذه المساحات الإعلامية والتواصلية. ومن هذا المنطلق إذًا، تتضح المسؤولية الفردية عن الالتزام بالسرية، باعتبارها واجبًا تجاه المجتمع والبيئة التي يعيش فيها هذا الفرد. ويمكن إجمال ذلك في النقاط الآتية:

١. أدى تفشي الفلسفات المادية والرؤى والأيديولوجيات الغربية بشكل عام من فكر ليبراليٍّ واشتراكيٍّ وجوديٍّ... إلخ. إلى غلبة الفضاءات الشخصية ومساحتها على المشهد، في مقابل ذلك تقلص الحيز الجماعي والاجتماعي بغض النظر عن الفحوى الاشتراكيٍّ وما لاته، إلى حدود ضيقه جداً.
٢. في معظم البلدان سواء كانت إسلامية أم غيرها من تلك التي

تبنّى أيدلوجيّات مغايرةً للمنحى الفكري الغربي الشائع، لم تسلم هي الأخرى ورغم انتهاجها الاتجاه المحافظ، من هذه الظاهرة، وذلك بسبب وسائل الإعلام والتواصل بأنواعها المختلفة، فضلاً عن أدوات الهيمنة الثقافية الموجودة من سينما وغيرها، والتي تبنّى وأخذت على عاتقها نشر هذه الثقافة في المجتمعات الأخرى. والسبب الآخر يعود إلى كون مؤسّسات النظام الدوليّ تعمل وفق هذا الإطار؛ أي الليبراليّ، من رأس الهرم المتمثّل بالأمم المتحدة، إلى أصغر منظمة دولية. وهذا ما أدى - وما زال - يؤدّي إلى فرض هذه الرؤى من خلال بوابة القوانين التي تعتمدُها هذه المؤسّسات، والتي يجب الالتزام بها؛ بغية الاستفادة من الانتماء لها، أو من خلال المعايير الدولية التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية، بعد سقوط الاتحاد السوفياتيّ، وبروز الأحاديّة القطبيّة، وإنْ كانت هذه الجزئيّة الأخيرة في الوقت الحاضر محلّ نظر وتشكّيك كبيرين بعد صعود الصين بوصفها قوّةً عظمى ومنافساً شرِسًا، بل متفوّقاً على الأقل في الجانب التجاري. كما أنَّ فعالية النظريّة الليبرالية قد تهاوت كثيراً بسبب التناقض الفاضح بين جوهر ما تدعو إليه، وهو السلام والتعاون، وبين تمثيلاتها عند التنفيذ، والتي غالباً

ما أدى لحروب دموية، خصوصاً بعد نهاية الحرب الباردة، كما جرى بوضوح في عملية غزو العراق. والمثير للسخرية أيضاً، وعلى الرغم من تأكيدِها على أهمية المؤسسات في النطاق الدوليّ، فإنَّها في المثال ذاته (غزو العراق)، اتَّخذت أمريكا قراراً فردياً دون أيٍّ غطاء شرعيٍّ من المؤسسة الدوليَّة الأكبر، وهي الأمم المتحدة. وكلُّ هذه المعطيات وغيرها، وخصوصاً بعد ما جرى في عملية طوفان الأقصى من دعم أمريكيٍّ غربيٍّ للكيان المؤقت بالقتل والتدمير، ومن ثمَّ قمع التظاهرات التي انطلقت تأييداً للفلسطينيين، سُيؤدي إلى تراكمات تزعزع مكانة السلطة الأمريكية في العالم، والأيديولوجية الليبرالية.

٣. إن الخطاب الفرداني الذي تبنَّاه الليبرالية على الصعيد الداخلي، وتربيتها للإنسان على أساسٍ واقعٍ ماديٍ بحت، بعيد عن أيٍّ معاييرٍ خُلُقيةٍ وروحيةٍ، يجعل مثاليتها في تآكل مستمر حتى بالنسبة للمؤمنين بها، فضلاً عن أنه سيؤدي حتماً إلى أن تكون الذهنية الفردية المؤسسة للرأي العام داخل المجتمعات المحافظة غير المؤمنة بها، غير مكثرة بالتلذُّعات الخُلُقية، والالتزام بالواجبات التي يجب أخذها بالاعتبار، خصوصاً فيما يتعلَّق بموضوعنا الخاص بالمسؤولية الاجتماعية، سواء على

المستوى الفردي أم في إطار المؤسسات والشركات.

٤. تسير عملية فرض الرؤى والأيديولوجيات المادية والليبرالية

على مجتمعات بلدان العالم، عبر مسارين:

أ. من خلال هرمية هذه الدول؛ أي بواسطة نظمها

السياسية، عبر المنظمات الدولية، والمعاهدات التي

تبرمها في هذا الجانب، وتنص على إدخال بنود هذه

الاتفاقيات في تشريعاتها المحلية.

ب. القاعدة الجماهيرية عبر وسائل الإعلام وموقع

التواصل الاجتماعي، مضافاً إلى غيرها من الأدوات

الفاعلة، كالسينما، والمسرح، والجامعات، والمناهج

التدريسية، وغيرها... إلخ، ومن ثم تتسرب هذه الرؤى

إلى بنية الدولة كلّها، سواء من خلال الشعب أم

سلطته السياسية.

٥. من الممكن الانطلاق من الإطار المؤسسي لمفهوم المسؤولية

الاجتماعية، إلى الحيز الشخصي لفرد، ثم البناء على هذا

الأساس لفهم الواجب المتعلق به، وكونه التزاماً جوهرياً يمسُّ

بنية المجتمع كله، فيما يتعلق بالكتمان ومنع إذاعة بعض

الأمور.

٦. البناء الفردي للمسؤولية الاجتماعية؛ أي الانتقال من الفضاء الشخصي للفرد إلى المجتمع، يسهم في تعزيز ثقة هذا الفرد بنفسه، وكونه عاملاً وفاعلاً في محيطه، من خلال تأدية الأدوار والواجبات المنوطة به، مضافاً إلى شعوره بأهمية وجوده؛ نتيجة تصديقه وبالأشكال كافة، ومنها السرية، للمشاريع والخطط التي يحاول الأعداء تنفيذها تجاه مجتمعه وهوئيه الدينية والروحية، وبدوره يؤدي ذلك إلى تنمية الانتماء لهويته ومحبيه.

◆◇◇◇◇◆      ◆◇◇◇◇◆

**الفصل الثالث:**

**نماذج من حفاظ الأنظمة الغربية على السرية**



اهتمَّت الدول الكبُرِي بِمَوْضِعِ السِرِّيَة اهتماماً شديداً، ما ينمُّ عن الأخطار الكبُرِي والجسيمة التي يمكن أن تعرَّض لها، في حال عدم إيلاء هذا الجانب الأهميَّة المطلوبة. وقد تمثَّل ذلك من خلال استراتيجيات وقوانين عدَّة، مضافاً إلى الإجراءات والقرارات المتَّخذة في المسائل الطارئة التي تحدث. ورغم أنَّ هذه الدول، وعلى وجه الخصوص الغربيَّة منها، كانت قد فتحت الإمكانيَّات الماديَّة واللوجيستيَّة لانتشار وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، والأدوات المتعلَّقة بالتجسُّس، سواء على مستوى التقُدُّم التكنولوجي والتقني في بلدان العالم، وحرصها على تضمين ما يسمَّى الشفافية الإعلامية بكلٍّ ما يتعلَّق بشؤون تلك البلدان، وجعلها طيَّ الكتمان، أم من خلال التحكُّم الإداري والتقني المباشر بهذه

الأدوات؛ بحيث تحقق مصالحها فقط في ما يتعلَّق بفتح الفضاء الشخصي للمجتمعات أمامها، عبر موقع التواصل الاجتماعي، وغيرها. ورغم أنَّها قد تكون بمأمن؛ نتيجةً امتلاكها لهذه الأدوات، فإنَّها قامت بالعديد من الإجراءات التي من المحتمل أن تسهم في تحصينها من الأخطار الناتجة عن إفشاء المعلومات، وبحثُ قدرِ الامكان عن الأساليب والإمكانيات التي تحدُّ من خطورة فتح المجال العام لمجتمعاتها أمام التقدُّم التقنيِّ لمجال الاتصالات.

إنَّ هذا الحرص الشديد من قبل هذه الأنظمة الغربية يعبِّر بوضوح عمَّا ذكرناه سالفاً من كون السرية اليوم ليست خياراً ترفياً، بقدر ما هي مسار جبريٌّ بحكم الواقع الذي نعيشه، وأجوائه المشحونة بهستيريا نشر الناس لكلِّ شيء تقريباً. لذلك نلاحظ بوضوح هذا الأمر في الأحداث الأمنية، وهذا أيضاً غير منوط بحكومات تلك البلدان فحسب، بل بالوعي الجماهيريِّ لمواطنيها، بضرورة عدم الانجرار خلف الرغبة الملحة لنشر هذه الحالات أو غيرها، وهو شعور بالمسؤولية تجاه أشياء عديدة، تأتي في مقدمةِ الحفاظ على الأرواح، وحرمان العدوِّ من المعلومات التي يمكن أن يحصل عليها في حالات النشر، فضلاً عن كون ذلك يُعتبر مشاركةً فعلية من قبل الفرد بالمحافظة على الأمن القوميِّ للبلد ونظامه السياسي.

## المبحث الأول: أمريكا

كانت الولايات المتحدة الأمريكية في مقدمة الدول التي عملت على حماية معلوماتها، وعدم الإفصاح في المجال أمام استخدام حرية الصحافة والنشر ذريعةً لنشر كل شيء. ورغم الادعاءات التي تتذرّع بها في هذا الشأن، من رعايتها للحقوق المدنية أو حمايتها للحرفيات من أي قمع ممكّن، فإنّها لم تتوانَ عن تجاوز هذه المسألة في سبيل الحفاظ على بعض الأمور طي الكتمان.

وقد بدأت سلسلة الإجراءات في هذا الجانب، قُبيل دخولها الحرب العالمية الأولى عبر قانون Espionage Act الصادر عام ١٩١٧، والذي وصلت فيه العقوبات إلى حد الموت أو السجن ما لا يقل عن ثلاثة سنوات. وقد تتضمّن الحالات المتعلقة بقضايا نقل المعلومات خدمة العدو وإلحاق الضرر بالقوات المسلحة الأمريكية، أو أي عرقلة من شأنها أن تؤثّر في نجاح هذه القوات في الحرب.

وفي هذه الحالة تصل العقوبة إلى ما لا يقل عن عشرين سنة، وغرامات مالية باهظة الثمن قياساً بتلك الفترة من الزمن. وقد جرت محاكمة كثيرين تحت طائلة هذا القانون، لمجرد مخالفة الجو السائد في الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، أو لمجرد طرح رأي من شأنه معارضه التوجه السياسي للسلطة في وقتها، فضلاً عن - وهو ما يتعلّق بموضوعنا؛ قضية النشر -

عدم السماح بنشر أي معلومة من الممكن أن تشكل تهديداً للولايات المتحدة الأمريكية، أو تعقل عمل قواتها المسلحة أو تعرضها للخطر. وقد وصلت أعداد المعتقلين بموجب هذا القانون إلى الآلاف. وقد كان ذلك بداية إحدى أكثر الفترات قمعاً في تاريخ أمريكا... خلال الحرب العالمية الأولى، تمت محاكمة أكثر من ٢٠٠٠ معارض بموجب القانون بتهمة التصريحات غير الموالية أو التحريرية أو الفتنة المزعومة. وربما كان ذلك مفاجئاً لأعضاء الكونغرس الذين أقروا هذا القانون، والذي

أصبح أول تشريع فيدرالي ضد التعبير الفتوني منذ ١٢٠ عاماً.<sup>(١)</sup>

وصح أن القانون غير معني بالمحافظة على السرية بالدرجة الأساس، لكنه متعلق أيضاً بمسار حفظ البيانات من النشر، ومن كل معلومة من شأنها أن تسبب ضرراً للقوات الأمريكية. تلقي هذا القانون سيلاً كبيراً من الاعتراضات، لكنه مع ذلك بقي مستمراً. حفظ السلطة والنظام العام للدولة أهم من المبادئ الشعارية للولايات المتحدة الأمريكية.

في قبال ذلك، وبحجّة الحفاظ على الأمن القومي والوطني لأمريكا، منحت وزارة الدفاع الأمريكية ووكالة الأمن القومي حقَّ فرض التعقيم الإعلامي في ما يخص الحوادث والنشاطات التي تراها تسبب خطراً على

الولايات المتحدة، ما أسهّم في التعتيم على كثير من القضايا والأحداث، ومنع وسائل الإعلام والناس من نشرها وتداولها، وحصر المعرفة بالسلطة السياسية وأجهزتها الفيدرالية فقط.

ومن الحوادث الشهيرة في هذا الإطار، نذكر قضية غزو جزيرة غرينادا من قبل أميركا في العام ١٩٨٣ ، والتي أطلقت عليها اسم ”عملية الغضب العاجل“، إبان عهد الرئيس (رونالد رغان- Ronald Reagan)، الذي سبق أن اتهم كوبا ببناء مطار عسكري في الجزيرة. ففي ”خطاب تلفزيوني، حذر ريقن الشعب الأمريكي من وجود مطار عسكري يجري بناؤه من قبل كوبا في غرينادا.“<sup>(١)</sup> وقد استخدم الرئيس الأمريكي وقتها التلاعب الصوري من أجل إقناع الجمهور الأمريكي بهذه الرواية، رغم أن المطار قد بُني وفق المواصفات المعتمدة في الطيران المدني، وقد أُنشئ من قبل شركة بليسي إيربورتس البريطانية، ووفقاً للمعايير الدولية للطيران المدني من قبل شركة بليسي إيربورتس البريطانية، وفي مقابلة أجربت عبر إذاعة ”ناشونال بابليك راديو“، ”سخر (ديريك كولير- Derek Collier)، المدير العام لشركة بليسي في لندن، تماماً من فكرة أن المطار ذو طابع عسكري.“<sup>(٢)</sup>.

---

1 - The Grenada invasion: A classic case of censorship.

2 - The Grenada invasion: A classic case of censorship.

عمدت الولايات المتحدة الأمريكية وقتها إلى منع الصحفيين من الوصول إلى الجزيرة، بل وهدّدت باستهدافهم في حالة مخالفة الأوامر. وكان الهدف الواضح - كما يبدو - وهو المحافظة على كونها الناقل الأساس والوحيد لما جرى هناك. ولم تتحقّق ذلك إلا من خلال الطريق السري للعملية، والمقصود هنا طبعاً منع وسائل الإعلام من تغطية غزو القوات الأمريكية للجزيرة، وإلا فالعملية كانت معلنّة، لكنّها آثّرت اعتماد الكتمان في مجال نقل الأحداث، وهذا أمر جوهرى توفره السريّة. وكان هناك تعليق لأحد الصحفيين الغربيين في حينها حول فرض هذه الرقابة المشدّدة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث قال: «لقد شهدنا للتو نهاية ٢٠٠ عام من حرية الصحافة في الولايات المتحدة». <sup>(١)</sup>

والمفارقة، أنّ العالم بأسره كان يعلم ما يجري في الجزيرة إلا الجمهور الأمريكي الذي حُرم من المعلومات عن هذه العملية. وفي وقت لاحق، وصف (رون دورفمان-Ron Dorfman)، محرّر مجلة «كويل» التي تنشرها جمعية الصحفيين المحترفين، غزو غرينادا بأنه «حملة ضخمة، ولم تكن مفاجئة بالنسبة للغريناديين، أو الكوبيين، أو أي شخص معنّى»، باستثناء الجمهور الأمريكي والصحافة. <sup>(٢)</sup>

---

1 - The Grenada invasion: A classic case of censorship.

2 - The Grenada invasion: A classic case of censorship.

حتى بعد أن سمحت القوات الأمريكية للصحفيين بتغطية العمليات العسكرية في الجزيرة، أجازت ذلك في نطاق ضيق ومحدود، من خلال الإشراف على هذه التغطيات الإعلامية، ومرافقة عناصر من القوات العسكرية للصحفيين؛ بغية الحفاظ على النسق ذاته في كتمان الأحداث قدر الإمكان، عن طبيعة العمليات القتالية ونتائجها التي جرت في غرينادا. هذا فضلاً عن إصرارها على احتكار الرواية الرسمية لما يجري من أحداث في هذه العملية العسكرية.

والمثال الآخر، كانت القيود التي فرضتها أمريكا على التغطية الصحفية والإعلامية لحرب الخليج سنة ١٩٩١؛ حيث فرضت إجراءات مشددة وتعليمات صارمة حدّت من إمكانية أي تغطية موضوعية لوسائل الإعلام حتى الأمريكية منها، فيما يجري من عمليات عسكرية ونتائجها وما لاتها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد ليشمل حتى التقارير الصحفية المكتوبة؛ حيث جرى مراجعتها من جانب الرقابة العسكرية، والتي تدخلت بشكل جوهري في مضمون هذه النصوص، لظهور في المحصلة بالكيفية التي تريدها، والماهية التي يمكن أن تبدو عليها رواية أحداث الحرب. “لم يُسمح للصحفيين بتغطية حرب الخليج إلا من خلال “مجموعات صحفية” (pools) برفقة مسؤولي الشؤون العامة في البنتاجون في جميع الأوقات، كما كانت جميع تقاريرهم تُعرض على

رقابة عسكريّة مسبقة.“<sup>(١)</sup>

وقد خضع الصحفيون لجملة من التدابير وترعّضوا لأساليب مهينة، جراء مخالفتهم لتعليمات القوات الأميركيّة، وهي سياسة ترهيب كبرى للضغط على ما يفترض أن تكون استقلالية الإعلام في تناول الأحداث بالطريقة التي يريدها. ونورد أمثلة على هذه المعاملات، وفق الآتي: جرى “توقيف مراسل نيويورك تايمز كريس هيدجز، فيما كان يجري مقابلات مع أصحاب المحال في السعودية بتاريخ ١٠ فبراير، من قبل السلطات العسكريّة الأميركيّة، واحتجز لمدة خمس ساعات... طاقمُ تلفزيوني تابع لهيئة الإذاعة البريطانيّة (BBC) تم سحب بطاقاته الصحفية لمدة ثلاثة أيام.“<sup>(٢)</sup>

هل اكتفت القوات الأميركيّة بالاحتجاز وسحب الشخص الصحافي؟ بالتأكيد لا، فقد وصل بها الأمر إلى حد التهديد بالسلاح، حينما كانت التغطيات الإعلامية تشير إلى وجود تراجع لدى القوات الأميركيّة مثلًا، أو تعرض الجنود للإصابات، كما حصل مع أحد الطواقم الفرنسيّة في وقتها؛ حيث أجبر أفراد طاقم تلفزيوني فرنسي “تحت تهديد السلاح من قبل مشاة

---

1 - Human Rights Watch: Freedom of Expression and the War.

2 - Human Rights Watch: Freedom of Expression and the War.

البحرية الأمريكية على تسليم شريط فيديو صوره لجنود أمريكيين جرحا خلال معركة استعادة مدينة الخفجي السعودية.<sup>(١)</sup>

وقد تعرض الصحفيون، الذين التزموا بالتعليمات وواكبوا الأوامر الصادرة من القيادة العسكرية في مسائل نقل الأحداث وما يجري خلال الحرب، لكثير من الإجراءات التعسفية لمجرد أنَّ تقاريرهم اعتبرت مضرّة بالمصلحة الأمريكية، تماماً كما حصل مع أحد مراسلي لوس أنجلوس، حينما نشر تقريراً مفاده، «أنَّ ٥٠ مركبة عسكرية أمريكية مفقودة. أُجيزت قصته من قبل الرقابة.... وأُمر بمعادرة التجمع الصحفي».<sup>(٢)</sup>

ومن الأمثلة التي جاءت متّسقة مع ما ذكرناه عملية الحظر الإعلامي الذي فرضته وزارة الدفاع الأمريكية على عملية نقل توابيت الجنود القتلى من الجيش، بحجة حماية خصوصيات العوائل. وبالتالي، إنها حجة ضعيفة ومنافية للصواب بالمرة. هذا الحظر الذي ابتدأ في العام ١٩٩١، وقد سُمّي بحظر دوفر نسبة للقاعدة الجوية الأمريكية، والتي كانت تستقبل رفات القتلى من الجيش الأمريكي، بعد ٤٢٠٠ أبقى الكونغرس على هذا القرار: «أعلن الكونغرس في قانون تفويض الدفاع الجديد، أن وزارة الدفاع كانت محقّة في حظر تغطية وسائل الإعلام لنقل توابيت العسكريين

---

1 - Human Rights Watch: Freedom of Expression and the War.

2 - Human Rights Watch: Freedom of Expression and the War.

الأميركيين الذين قُتلوا في العراق أو وصلوها إلى قاعدة دوفر الجوية.<sup>(١)</sup> التحجج بقضية خصوصية عوائل الجنود القتلى لم تقنع حتى الداخل الأمريكي نفسه، ووجهت انتقادات شديدة لهذا الحظر؛ حيث اعتبره دافع سياسي. «السياسة المناهضة للتغطية الإعلامية مطبقة منذ حرب الخليج عام ١٩٩١. وقد أثار معارضو حرب العراق الرئيس جورج بوش بإبعاد الكاميرات عن قاعدة دوفر لأسباب سياسية.»<sup>(٢)</sup>

حتى الرئيس الأمريكي السابق (جو بايدن- Joseph Biden) انتقد هذه الإجراءات في وقتها، واصفًا إعادة رفات الجنود إلى البلاد «سرًا تحت جنح الظلام»<sup>(٣)</sup> بالأمر المخزي. هذا التعامل الفج مع وسائل الإعلام لدولة تدعي بأنها أرض الأحلام والحريرات، يعبر عن تناقض فاضح بين المبادئ المفترضة للولايات المتحدة الأمريكية والواقع، سواء في هذا التعامل الذي أبدته من خلال عدد من الأمثلة التي ذكرناها، أم من خلال الحروب الكبيرة التي خاضتها، ومساندة الأنظمة المستبدة والإرهابية، كما يحدث مع دعمها غير المحدود للكيان المؤقت.

---

1 - Secrecy News: Congress supports media blackout on military coffins.

2 - Shapiro, A.: Ban on media coverage of military coffins revisited.

3 - Shapiro, A.: Ban on media coverage of military coffins revisited.

لكن في المحصلة، ومن الناحية الاستراتيجية تعتبر هذه التصرفات صحيحة، حينما ننظر لمصلحة السلطة هناك، والنأي بالمجتمع الأمريكي بعيداً عن سيل المعلومات التي قد تربكه. من جهة أخرى، إن ذلك يمكن الإدارة السياسية هناك من الحفاظ على توجّهات المجتمع وفق المسار المنسجم مع رغبات البيت الأبيض. مضافاً إلى أن هذه الطريقة في التعامل مع وسائل الإعلام، من حيث الحفاظ على سرية الأحداث، مثلما حصل في حادثة غزو جزيرة غرينادا أو غيرها من الأمثلة، والحرص على حصر روایة الحدث عن طريقها فقط، يؤدي ذلك كله إلى تطّبع المجتمع، سواء على مستوى الأفراد في فضائهم الشخصي أم على مستوى العقل الجمعي كلّه، بالتعامل مع الأحداث والمعلومات بطريقة غير عشوائية، فيها كثير من الكتمان والتحفظ على نشرها وإذاعتها.

وهذا بدوره يعزّز الشعور بمسؤولية هؤلاء تجاه كيان هذه الدولة وشعبها، وهو إشارة واضحة إلى أهمية هذا الخيار على المستوى الاستراتيجي للدولة. فحينما نرى حجم السرّية التي توليه الولايات المتحدة الأمريكية حتى لأشياء قد لا تعتبر مؤثرة بشدة، مثل قضية توقيت الجنود القتلى، فإن ذلك يشير بشكل واضح إلى أن الكتمان والسيطرة على وسائل الإعلام والتحكم بمخرجاتها فيما يتعلق بالصورة والتقرير، تُعدُّ كُلُّها من عوامل القوة التي مكّنت أميركا من الهيمنة على العالم، كما تشير إلى أن موضوع

السرية بحد ذاته له أثر كبير في كثير من المجالات، رغم الاستهانة التي نراها اليوم في التعامل مع هذا المفهوم في بلداننا.

نلاحظ أن الأمثلة التي سُقناها كانت بالأساس عملية مدققة فرضتها الإدارة الأمريكية، وهي شأنها شأن أي قانون يتم فرضه والمعاقبة عند عدم الانصياع له أو تنفيذه. ومعنى ذلك أنها ليست وليدة الشعور بالمسؤولية لدى الأفراد، أو الإيمان بقيمة هذا المنحى في التعاطي مع الأمور فحسب، وهذا ما يbedo واضحًا وجليًّا، لكن العبرة هنا، هي أنه إذا لم يتولَّ الشعور الذي بالسرية والمحافظة على الأمور الحساسة طيَّ الكتمان، لدى الأفراد والمجتمع، يجب أن تأخذ السلطة ومؤسسات الدولة بشكل عام، على عاتقها تدجين سكانها على هذا الأساس، من خلال مجموعة من التدابير التي تعتمدها، والقوانين التي تُسُّنُّها، ومن ثم تأتي عملية الالتزام بهذا المبدأ تلقائيًّا، سواء عبر الخوف من مخالففة التشريعات الخاصة بهذا المفهوم، أم من خلال الاعتياد المتكرر في أثناء الانصياع لهذه التشريعات. فالشكل الذي تتخذه السلطة، والتصерفات التي تمارسها مهما كانت، تعكس تلقائيًّا ولو بشكل تدريجي على المجتمع. فإذا اتخذت القهر والظلم، بمرور الزمن تسرَّبت هذه الظواهر إليه، وصار يمتهنها في المعاملات والممارسات التي تجري في داخله؛ أي بين الأفراد أنفسهم. وإذا كانت تصرُّفاتها نابعة من الحكمة والعدل بين الناس، انتقلت آثار هذه الصفات

### الفصل الثالث - المبحث الأول ٩٣

الإيجابية إليهم؛ لأن علاقة السلطة برعاياها يغلب عليها الطابع الاحتkaكي، وكذلك طبيعة المجتمع المتاثرة بها، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «فليست تصلح الرَّعْيَةُ إِلَّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إِلَّا باستقامة الرَّعْيَةِ»<sup>(١)</sup> وبالعودة لأميركا، وطريقتها في كتمان القضايا الحساسة، نجد هناك مثلاً آخر، لكن هذه المرة ستكون أولوية الإشارة فيه للأفراد في تحمل أعباء هذه المسؤولية، وليس البيت الأبيض. إنَّه مشروع مانهاتن الذي كان برنامجاً للبحث، أنشأته الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٤٢؛ أي في خضم الحرب العالمية الثانية، بالتعاون مع دولتين، هما بريطانيا وكندا. كان هذا المشروع تجسيداً للسباق المحموم حول امتلاك السلاح النووي بين الدول الكبرى في وقتها، خصوصاً بعد حادثة "قصر معهد فيلهلم" والملاحظة العملية لقضية الانشطار النووي؛ حيث جرى اكتشاف الانشطار النووي في معهد القيصر فيلهلم للكيمياء في ديسمبر عام ١٩٣٨. " أثناء قصف اليورانيوم بالنيوترونات، اكتشف "أتو هان" وزميله "فريتز شتراسمان"، أن نواتج الانشطار مثل الباريوم جرى إنتاجها أيضاً خلال هذه العملية."<sup>(٢)</sup>

وبعد ذلك، تحققت الخطوة العلمية عبر تفسيرها من قبل علماء

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٥٥.

2 - Max Planck Institute for Chemistry.: Die Entdeckung der Kernspaltung.

آخرين. وفي يناير ١٩٣٩، قدمت "ليز مايتز" وابن اختها "أوتو فريش" التفسير العلمي لذلك. وبصفتها يهودية نمساوية، كانت مايتز قد هاجرت من ألمانيا في صيف عام ١٩٣٨، لكنها استمرت في المراسلة مع هان من منفاهما في السويد.<sup>(١)</sup> هذه الحادثة مهدت للمشروع إياه، وأدت إلى تصاعد وتيرة العمل للبدء بإنتاج القنبلة النووية.

الغاية من تضمين هذه السرديةات هو التأكيد على أهمية مشروع مانهاتن، خصوصاً أن العمل حصل وسط أجواء مشحونة يعيشها العالم جراء استمرار الحرب العالمية الثانية، وتعيشها الدول الكبرى، سواء كانت على الجبهة من تحقيق لانتصارات أم التراجع والهزائم، وما يعقب ذلك من انهيار لاقتصادات الدول، وخسائر بشرية ووصلت لملايين البشر. أسهمت هذه العوامل في خلق توتر عالمي وهيستريا عمّت الأنظمة والشعوب. فهذه الظروف المحيطة بمشروع منهاتن مهمة في تفسير قيمة العمل به، ناهيك عن أن الالتزام بالتعليمات الخاصة بالمشروع إياه ستكون مسؤوليته مضاعفة.

عمل في هذا المشروع قرابة ١٣٠ ألف شخص، وهو رقم كبير جداً، ورغم هذه الأعداد البشرية الهائلة فقد بقي برنامجاً سرياً، لم يجر الكشف

عنه تقريرًا إلا من قبل الاتحاد السوفييتي. هذا الرقم البشري الضخم، في مشروع مهم وحساس مثل مانهاتن، الذي طلب سرية كبيرة جدًا، حرصًا على عدم اطلاع الدول الكبرى عليه، لم يكن ليقوى محافظةً على هذا الإطار من الكتمان، لولا وجود حرص ذاتي من العاملين فيه.

صحيح أن المشروع جرى اختراقه من قبل الاتحاد السوفييتي، وهذا متوقع في ظل الأعداد الضخمة، لكنه مع ذلك بقي عصياً على اليابان وألمانيا وبقية الدول. "المسؤولون في أجهزة الاستخبارات ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) فعلوا كل ما بوسعهم لمنع ألمانيا النازية أو اليابان من معرفة ما كان يحدث.... تمكّن الاتحاد السوفييتي من اختراق مشروع مانهاتن بنجاح."<sup>(١)</sup>

وقد تحقق ذلك للاتحاد السوفييتي من خلال أحد علماء الفيزياء. ومن خلال القياس على النسبة والتناسب يمكن القول، إن مسألة السرية كانت فاعلة إلى حد كبير، بالنظر للأعداد الضخمة العاملة في المشروع، والإمكانيات الهائلة والقدرة العالية لمخابرات الاتحاد السوفييتي. ولولا التزام أغلب العاملين في هذا المشروع بالكتمان والمحافظة على عملهم وحقيقة هذا البرنامج، لكانت النتائج ستكون كارثية بالنسبة للولايات

---

1 - Matt Garrow: «10 Fascinating Facts About The Manhattan Project».

## ٩٦ • السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

المتحدة الأمريكية، خصوصاً حينما نستذكر العوامل والظروف التي كان العالم يعيشها في حينها.

### المبحث الثاني: بريطانيا

ما زالت بريطانيا أو المملكة المتحدة، التي لا تغيب عنها الشمس كما وُصفت في مرحلة من مراحل التاريخ، رغم تراجعها عن عرش النظام الدولي، لاعباً مهماً وأساساً فيه. حتى وإن ظهرت في كثير من القضايا الجوهرية تابعةً للقرار الأمريكي أو موافقة له، فإن ذلك لا يمكن له أن يجعلنا نزكيّ المملكة المتحدة عن خريطة التأثير السياسي العالمي، فهي وإن تقهقرت بعد الحرب العالمية الثانية، شأنها شأن القوى التقليدية التي كانت معروفة، احتفظت لنفسها بمكانة مرموقة، سواء في خضمّ الحرب الباردة والتنافس الشديد الذي شهدته العالم بين الاتحاد السوفيتي، والمعسكر الغربي، أم خلال فترة الأحادية القطبية عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، أم حتى خلال هذه المرحلة التي نشهد فيها انكماساً هذه الأحادية، وعودة الأقطاب الدولية للواجهة، مع الصعود الصيني واستعادة روسيا لمكانتها.

في ظلّ هذه المعطيات كلّها وغيرها، تحظى الممارسات التي تقوم بها المملكة المتحدة بأهمية نابعة من مكانة هذه الدولة في المجال الدولي.

مضافاً إلى أنَّ أيَّ إجراءات ممكن أن تُتَّخذ من قبلها، تصبح بمثابة الاستشهاد الذي لا يمكن إغفاله، في مجال استنساخ تجاربها. ومن هذا المنطلق، فإنَّ التجربة البريطانية في هذا الصدد، مهمة وأساس. النظام السياسي في بريطانيا كغيره من الأنظمة المتقدمة، التي أولت اهتماماً بمسألة الحفاظ على أنها القومى والوطني عمماً سواها من قضايا، حتى لو كانت من قبيل المبادئ التي تحاول تصديرها للآخرين، شأنها في ذلك شأن الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما يتجلَّى بشكل واضح في مسألة التعامل بسرية شديدة في كثير من القضايا المهمة، والإيعاز بالتكتم لوسائل الإعلام من أجل الالتزام بهذا المبدأ، رغم حرية الصحافة والتعبير التي لا تنفكُ ترُوِّج لها، وتوجه الانتقادات للدول والأنظمة التي لا تلتزم بها.

نظام DSMA-Notice: وهي هيئة تشكَّلت قُبَيل الحرب العالمية الأولى، من قبل الحكومة البريطانية؛ بغية عدم نشر بعض المعلومات التي قد تسبِّب ضرراً للأمن القومي للمملكة المتحدة. ورغم عدم وجود صفة إلزامية وقانونية لهذه الهيئة - كما يجري ادعاء ذلك علناً - فقد جرى ضمتاً تحويل تعليماتها وإشعاراتها إلى قرارات واجبة التنفيذ. إنَّ هذا النظام يقوم على أساس على وجود هيئة استشارية تسمى بـ "اللجنة الاستشارية للإعلام الأمني والدفاعي"، مهمتها تكمن في إرسال

الإشارات إلى وسائل الإعلام البريطانية المتنوعة؛ بهدف الامتناع المؤقت أو الدائم عن نشر بعض القضايا التي ترى فيها تهديداً للأمن القومي للمملكة المتحدة. غالباً ما يرتكز محور هذه القضايا في مواضيع متعلقة بالعمليات العسكرية السرية، أو التحركات العامة للقوات المسلحة البريطانية، أو الأخبار المرتبطة بالتقنيات الاستخباراتية، أو تلك التي تتعلق بالأمن السيبراني، فضلاً عن الشخصيات المهمة التي تعمل في أماكن حساسة، وت تكون «من كبار موظفي الخدمة المدنية ومحرّرِين من الصحف والمجلات الوطنية والإقليمية، ووكالات الأنباء، والتلفزيون، والإذاعة، والناشرين الرقميين». <sup>(١)</sup>

تقرُّ هذه اللجنة بالحاجة الماسَّة لعملية التوجيه المستمر لوسائل الإعلام المختلفة؛ سواء كانت الصحفة أم التلفزيون أم حتى الإذاعة، فضلاً عن موقع التواصل الاجتماعي. يأتي هذا التوجيه في ظلِّ الاضطراب الذي يعاني منه العالم في مسألة حدود الحرّيات المتعلقة بالنشر ومسألة التوثيق، كونها اليوم متعلقة ومرتبطة ارتباطاً جوهرياً بالأمن القومي للدول؛ نتيجة تحويلِ وسائل الإعلام الحديثة، قضيَّة النشر والإذاعة إلى مستوى

قاعديًّا متاح للجماهير، بعد أن كان هذا الأمر في الماضي منوطًا بالأدوات التقليدية فقط، والتي يسهل السيطرة عليها. ”وتعمل اللجنة بناءً على قناعة مشتركة بوجود حاجة مستمرة لنظام من التوجيه والنص“<sup>(١)</sup>.

الملاحظة المهمة في هذا الصدد، هو مصطلح الأمن القومي الذي ما زال دون تعريف محدد من قبل الحكومات التي تعاقبت في بريطانيا، ما جعله مصطلحًا مطاطًا، غير قابل للتقييد ضمن حدود معينة أو ضوابط محددة. ”من الجدير بالذكر، مع ذلك، أن الحكومات البريطانية المتعاقبة دأبت على عدم تعريف ”الأمن القومي“ بشكل محدد؛ إذ لا يمكن تقسيم الأمن القومي إلا في سياق التهديدات التي تواجه المملكة المتحدة ومصالحها ومصالح حلفائها.“<sup>(٢)</sup>

أتاح هذا الأمر لهذه اللجنة وللميلياتها التوسيع في عملها، والتدخل في كثير من الحالات التي قد لا تستوجب التدخل من قبلها، ويمنح مرونة كبيرة لعملها في مسألة ضبط وإخضاع الحالات المستحدثة والقضايا الطارئة مهما بلغت خطورتها، من خلال عدم التحديد هذا. مضافًا إلى أن

---

1 - Defense and Security Media Advisory Committee (DSMA), About the DSMA Committee.

2 - Defense and Security Media Advisory Committee (DSMA), About the DSMA Committee.

## ١٠٠ السريةُ ضرورة وجوديةٌ

المعلومات المرتبطة بالأمن السيبراني، أيضاً وبشكل عام لا تزال مبهمة وغير واضحة المعالم، ولا يوجد للآن اتفاق أو شبه توافق على تعريف عام من الممكن أن يندرج تحته هذا المصطلح، وهذا ما تعرف به اللجنة وغيرها. و«من الجدير بالذكر، أنه لا يوجد تعريف عالمي متفق عليه لمفهوم «الفضاء السيبراني...»<sup>(١)</sup>

إذاً، رغم ادعاء اللجنة أن عملها استشاري بحت، فهو بالحقيقة ملزِم من جوانب عديدة، ما دام بالإمكان التلویح دائمًا بكون هذه القضية أو تلك، قد تهدّد الأمن القومي للمملكة المتحدة، أو كون هذه المعلومة أو غيرها قد تمسُّ الفضاء السيبراني للدولة. منح عدم التحديد -الذي أشرنا إليه- هذه اللجنة كثيراً من القوة، وأعطى لإشاراتها صفة إلزامية مُضْمرة، فالإشارات التي ترسلها لوسائل الإعلام، وإن كانت تعلن بأنَّ المحرر في هذه الصحيفة أو تلك القناة، هو المسؤول الأخير عن نشر المعلومة أو الخبر، لكنَّ ربط المنع بالأساس بموضوع الأمن القومي، يشكّل حاجزاً لا يمكن لهذا المحرر النفاذ من خلاله، خصوصاً وأنَّ في طيَّات هذا الربط ما يُلقي بمسؤولية أمن البلد وسلامته على عاتق العاملين في الوسائل

---

1 - Defense and Security Media Advisory Committee (DSMA), About the DSMA Committee.

### الفصل الثالث - المبحث الثاني ١٠١

الإعلامية. لذلك قلنا، إن لإشعاراتها التي ترسلها إزاماً مُضمراً، نابعاً من ربط المعلومات والأخبار بهذه المسائل الحساسة.

من أبرز الأمثلة التي طبّق فيها هذا النظام، هو قضية (سنودن-Snowden)، حيث هددَ (ديفيد كاميرون-David Cameron)؛ رئيس الوزراء البريطاني حينها، وسائل الإعلام باللجوء للقضاء في حال استمرارها في نشر معلومات وأخبار تتناول هذه التسريبات، أو أي معلومات أخرى متعلقة بها. فقد "وجه رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون نداءً إلى صحيفة الغارديان وغيرها من الصحف دعاها فيه إلى ممارسة "المسؤولية الاجتماعية" عند تناولها الملفات المسربة من وكالة الأمن القومي الأمريكية (NSA)، محدداً من إمكانية اللجوء إلى المحاكم أو إصدار إشعارات "D Notice" لمنع نشر معلومات قد تضر بالأمن القومي."<sup>(١)</sup>

ولتبرير التهديد المبطن باستخدام إشعارات هذا النظام، مباشرة جرى ربط ذلك، بقضية الأمن القومي؛ كون هذه الذريعة البوابة الأكثر اتساعاً من غيرها لإدخال كثير من القضايا إلى حيزها الخاص، خصوصاً وأن هذا المفهوم غير محدد المعالم، وما زال خاضعاً للتأويل المستمر، ما أفسح المجال أمام الحكومات البريطانية لإضفاء المزيد من الإضافات

---

1 - Watt, Nicholas: «David Cameron Makes Veiled Threat to Media over NSA and GCHQ Leaks.»

## ١٠٢ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

والتضمينات على هذا المفهوم، بالشكل الذي يحقق مصالحها ويضمن سلامة النظام هناك. تسبَّبت قضية (سنودن) في وقتها بضجة كبيرة في الأوساط العالمية، وقد حاولت بريطانيا جاهدة حجب النشر وعدم تناول المعلومات المتعلقة بها ضمن هذه القضية قدر الإمكان. من هذا المنطلق أعلن (كامرون) في وقتها بكل صراحة، أنه لا يمكن للحكومة البريطانية أن تقف متفرجة، إذا لم تلتزم وسائل الإعلام في المملكة المتحدة بمطالباتها بالكشف والتغاضي عن نشر الأخبار والمعلومات المتعلقة بقضية (سنودن) «... لكن إن لم يتحلوا بالمسؤولية، فسيصعب على الحكومة أن تبقى متفرجة دون أن تتحرك». <sup>(١)</sup>

المثال الثاني الواضح، هو قضية تسميم العميل الروسي المزدوج؛ (سيرجي سكريپال-Sergei Skripal)، الذي تعرض لمحاولة اغتيال مع ابنته في

---

١ - Watt, Nicholas: «David Cameron Makes Veiled Threat to Media over NSA and GCHQ Leaks.»

٢ - عميل روسي بريطاني مزدوج، عمل لسنوات طويلة داخل روسيا وخارجها ضابط استخبارات، قبل أن يتم تجنيده من قبل الاستخبارات البريطانية، واعتقاله روسيا وحاكمته على خلفية اتهامه بالتجسس لجهات أجنبية وإفشاء أسرار خاصة، ثم سُلم لبريطانيا لاحقًا ضمن صفقة تبادل، وتعرض في بداية مارس/آذار ٢٠١٨ لغاز أعصاب أفقدته الوعي، نُشر في موقع الجزيرة «سكريپال.. عميل «سمم» العلاقات البريطانية الروسية»، (٢٠١٨-٣-١٥).

## الفصل الثالث - المبحث الثاني ١٠٣

شقة في بريطانيا. «أعلنت الشرطة البريطانية الأربعاء أن العميل الروسي المزدوج السابق؛ (سيرغي سكريپال) وابنته تعرضا للتسميم بغاز الأعصاب في منزلهما بمدينة سالزبوري»<sup>(١)</sup>؛ حيث طبّقت الحكومة البريطانية نظام اللجنة إياها على هذه القضية. وجاء في إشعارها الذي أرسلته إلى وسائل الإعلام ما يلي: ”.... فإنَّ هُويَات موظفي وكالات الاستخبارات المرتبطين به لم تُعرَف بعد لل العامة. لذا تطبق أحكام مذكرة (DSMA-Notice) على هذه الهُويَات.“<sup>(٢)</sup> إن كم الأحداث والقضايا والأخبار التي طبّقت عليها اللجنة نظامها كان لافتًا كما رأينا، ودائماً ما تعلقت الذريعة بأذىال الأمان القومي للمملكة المتحدة، وهذا ما يجعل إشعاراتها عامة وباتّة في الوقت عينه، كما يشير إلى ذلك كثير من ذوي الاختصاص في بريطانيا، وفي مقدمتهم أحد أساتذة جامعة باث، حيث يقول في هذا الصدد: ”...الحكومة تقول، إنَّه لا ينبغي ذلك. من المفترض أن تكون المذكرات طوعية، لكن كل وسائل الإعلام تتلزم بها، لذا فهي ليست كذلك حقًّا - وهذا لا يتماشى مع حرية الصحافة“<sup>(٣)</sup>.

---

١ - قناة الجزيرة: كشف تفاصيل تسميم الجاسوس الروسي ببريطانيا.

2 - Wray, B. : SpinWatch publish confidential media ‘D-notices’ on the Skripal case.

3 - Wray, B. : SpinWatch publish confidential media ‘D-notices’ on the Skripal case.

وهناك عدد من الأمثلة الأخرى - بعضها نُشر والكثير بقي طيَّ الكتمان - على عمل هذه اللجنة وتوجيهها لوسائل الإعلام فيما يخص التعاطي مع القضايا، بما يتضمن الممنوع المؤقت وال دائم عن النشر. إنَّ مثل هذه الأعمال تبرهن بوضوح على أهمية ضبط عملية النشر والتعاطي مع المعلومات المُحصلة بالشكل الذي لا يؤدي لاستغلالها من قبل الأعداء، أو تؤدي إلى الإضرار بالأمن القومي لهذا البلد أو ذاك. وهذا أمر جوهري ومهم ولا تقل أهميته عن أي مجال آخر حيوى بالنسبة للدولة، في ظل المرحلة الراهنة، والتي تشابكت فيها المعلومات وأتُيح فيها التعبير عن الرأي للجماهير، بالشكل الذي يجعل من هذا الفرد مؤسسة شخصية متکاملة في المجال الإعلامي !

لم تكتفِ المملكة المتحدة بما ذكرناه سابقاً، بل عَضَدت مسألة الحفاظ على السرية وكتمان المعلومات، بمزيد من القوانين والإجراءات؛ هذا الأمر جاء لتأكيد حقيقة لم ننفكَّ أو نملَّ من ذكرها في كل صفحات هذا الكتاب، ألا وهي أنَّ موضوع الكتمان، بات اليوم قضية جوهرية لا مناص من العمل بمقتضياتها.

وبالعودة إلى النموذج البريطاني، هناك قانون مهم شرعته المملكة في هذا الصدد، وهو قانون الأسرار الرسمية لعام ١٩٨٩ (Official Secrets Act ١٩٨٩)، فقد جاء هذا القانون لكي يحلَّ محلَّ التشريع القديم الذي

### الفصل الثالث - المبحث الثاني ١٠٥

يعود لسنة ١٩١١. صحيح أن نصوص المواد المعلن عنها بموجب هذا القانون، تشير إلى أنه يحمي بعض المعلومات دون الأخرى - "يحمي القانون فئات محددة من المعلومات الرسمية أو الوثائق أو المواد التي تكون بحوزة موظف التاج، بمن فيهم الوزراء أو المتعاقدين مع الحكومة، بحكم موقعهم الرسمي. قد تشمل هذه المعلومات، في بعض الحالات، معلومات تتعلق بمهامهم الرسمية."<sup>(١)</sup> - لكنه في الحقيقة من الممكن أن يشمل الكثير من المعلومات التي يمنع الإفصاح عنها؛ نتيجة ارتباطها بفئات وقضايا ذات معانٍ واسعة وفضفاضة، تدرج في إطارها كثير من المعلومات.

وبالأصل، من الوارد بل والمتيقن إمكانية إدراج أيّ معلومة أو سر ضمن "الفئات الست للمعلومات الرسمية التي يعطيها القانون، وهي: الأمن والاستخبارات، والدفاع، والعلاقات الدولية، والثقة الأجنبية (معلومات من جهات أجنبية)، معلومات قد تؤدي إلى ارتكاب جريمة، سلطات التحقيق الخاصة بموجب قانون اعتراف الاتصالات لعام ١٩٨٥ وقانون جهاز الأمن لعام ١٩٨٩ . يُعدُّ إفشاء هذه المعلومات دون سلطة قانونية، مع العلم أو وجود سبب معقول للاعتقاد بأنّها محميّة بموجب أحکام

---

1 - "Official Secrets Act." Hansard, UK Parliament, 25 Feb. 1998.

## ١٠٦ السريةُ ضرورةٌ وجوديةٌ

القانون وأن الإفشاء ضارٌ، جريمةً.“<sup>(١)</sup>

فمثلاً، في فئة الأمن والاستخبارات، من الممكن أي تفصيل، ولو كان صغيراً وغير ذي أهمية ربطه بهذه الفئة، خصوصاً أننا نشهد اليوم مرحلةً من التداخل بين المجالات، أدى إلى عدم وجود معايير محددة تضمن استقلالية هذا الجزء عن الآخر. ومن هذا المنطلق، يمكن عند توقيع لقطات أثناء وقوع الحادث، وظهور أفراد القوات الأمنية في هذا التصوير، أن تطبق عليه نصوص ومواد هذا القانون. وعلى سبيل المثال يمكن لنا أن نقيس كثيراً من الأحداث والقضايا التي ترتبط بهذه الفئة، والشيء ذاته ينطبق على كل الفئات تقريباً.

ورغم أن القانون ذكر بعض الشخصوص المحدّدين وفق ضوابط معينة، وجرّأ أفعالهم نتيجةً أي كشف للمعلومات، والتي من الممكن أن تحدث ضرراً - ”بموجب قانون الأسرار الرسمية لعام ١٩٨٩، يجب على موظفي التاج، بمن فيهم وزراء الحكومة، حجب المعلومات إذا كانوا يعتقدون أن هذه المعلومات محمية بموجب القانون، ولا يملكون السلطة القانونية للإفصاح عنها؛ لأن الإفصاح عنها في غير هذه الحالة يشكل جريمة رغم منع هذا القانون لشخصوص معينين، كما أسلفنا، وهم موظفو التاج والمقاولون

---

1 - Official Secrets Act.” Hansard, UK Parliament, 25 Feb. 1998.

### الفصل الثالث - المبحث الثاني ١٠٧

المتعاقدون مع الحكومة البريطانية، من الإفصاح عن المعلومات المتعلقة بأعمالهم وغيرها، فإنَّ ما يعنيها هو الإمكانية التي أتاحها القانون للحكومة البريطانية؛ لفرض أحکامه على المواطنين وإلزامهم بها: ”بموجب قانون الأسرار الرسمية لعام ١٩٨٩، يمكن لموظف التاج، بما في ذلك الوزير، أن يلزم أيَّ شخص لا يُعد موظفَ تاج أو متعاقدًا حكوميًّا بموجب القانون، بما في ذلك أحد المواطنين، بالحفظ على سرية معلومات رسمية تقع ضمن أيِّ من الفئات الست التي يشملها القانون وتم إسنادها إليه“<sup>(١)</sup>.

وهذه الخصوصية التي حملها هذا القانون قد تعنيها أكثر من غيرها في موضوع هذا الكتاب؛ لأنها مرتبطة بإلقاء المسؤلية من قبل السلطة على المواطنين فيما يتعلق بالسرية، وكتمان المعلومات، والتي ترى فيها الجهات التنفيذية أو أي جهة مرتبطة بالدولة، أن من شأنها إحداث ضرر، يقع في نطاق الفئات التي ذكرناها سالفًا. من هنا إذًا، خرج محتوى القانون وأحكامه من الحالة الخاصة التي تفرض على العاملين في حكومة التاج البريطاني والمتعاقدين معها التقييد به، إلى الشأن العام الذي يجعل من مسألة حفظ الإسرار والحيلولة دون نشرها التزاماً شعبيًّا من قبل المواطنين تجاه الدولة التي يقطنونها.

---

1 - Official Secrets Act.” Hansard, UK Parliament, 25 Feb. 1998.

وهذا الأمر يقصد تلقائياً من قضية المسؤولية الاجتماعية للأفراد بهذا الصدد، عبر الإلزام القانوني، كما ويساند الجهد الحكومي في عملية حماية المعلومات، ومن ثم تدريجياً حفظ الأمن القومي، الذي قد يناله الضرر من تفشي أي معلومة، في هذا الإطار؛ أي المتعلقة بالجوانب الأمنية والاستخباراتية، كذلك المرتبطة بالجهات الخارجية، وقضايا الدفاع ومعلومات الاتصال، وكل ما هو متصل بالعلاقات الخارجية للدولة.

إن التوأمة الحاصلة بين الجهات العاملة في السلطة، والمواطنين العاديين، لناحية وجوب الالتزام بأحكام هذا القانون، من شأنها خلق الجو المثالي لتعزيز منظومة حفظ المعلومات، بل وتنميتها على المدى البعيد، ما دامت قد ارتبطت بنصوص قانونية، تتيح لها عملية الفرض والتطبيق.

هذه المعطيات كلُّها من شأنها الدفع بالسرية للوجود ضمن الحدود التي يشغلها النظام السياسي للمملكة المتحدة، ما دامت عملية الالتزام بها متبادلةً بين الحكماء والمحكومين؛ بين المسؤولين عن تنفيذ القوانين المشرعة في هذا المجال ابتداءً، وبين من وقع عليهم تحمل أعباء هذا الالتزام فيما بعد من مواطنين وغيرهم. مضافاً إلى ما ذكرناه سالفاً، هناك قرارات وإجراءات تُتخذ في الظروف والأحداث المستجدة من شأنها أن تصب في المجال ذاته.

ولعلَّ المثال البارز الذي يمكن أن يُذكر، هو أوامر حظر النشر (Gag

(Orders)، وهي عبارة عن أوامر قضائية تصدر مراعاةً للمصلحة العامة التي قد تتضرر جراء نشر هذه القضية أو تلك. وأوامر حظر النشر هي حالة عامة موجودة في معظم البلدان وغير مقتصرة على المملكة المتحدة، لكنْ ما يعنيها أنها أيضًا قد تصبُّ بشكل أو باخر في خانة الهدف الذي نتوخَّاه من الكتاب، ألا وهو السرية والمحافظة على المعلومات من النشر العشوائي والهستيري الذي نعانيه في هذه الأيام.

من هنا إدًاء، تبرز أهمية التجربة البريطانية في هذا المجال؛ إذ إنها متأتيةً من تراكم تشريعي في مجال القوانين التي صدرت بهذا الخصوص، مضافاً إلى وقائع عملية جرى تطبيق هذه القوانين عليها، مماً جعلها فاعلة ومؤثرة في المجتمع والدولة على حد سواء. إن النموذج البريطاني قد لا يكون الأمثل والأكمل في مسار تفعيل السرية بصفتها منظومة فاعلة ومتاحةً في الحيز الشخصي والجماعي للبلدان، لكنه على أقل تقدير يمكن أن يلفت الانتباه إلى ضرورة الإسراع في خلق وجود واقعي لهذا المفهوم. فالملكة المتحدة وقبلها الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارهما

دولتين كُبرَى سيدرتا على النظام الدولي لعقود طويلة من الزمن، وفي ظل امتلاكهما لكثير من تقنيات الاتصال والتواصل، مضافاً إلى امتلاكهما منظومات تجسس واستخبارات تعتبر من بين الأبرز والأهم على مستوى العالم. ورغم كل هذه المعطيات وغيرها، رأيناهما كيف تحاولان، بل

## ١١٠ السريةُ ضرورة وجودية

وتشرعن ان كتمان المعلومات والسيطرة على نوافذ النشر والحرص كل الحرص على عدم إذاعتها، إلا عبر قنوات تُحسب عليها أو خاصة بها، تفادياً لأيّ أضرار يمكن أن تلحق بأمنها القومي والاجتماعي داخل حدودها، فكيف بنا نحن إذًا؟ ومعظم بلداننا تفتقر للسيادة بشكلها المطلق، وقرارها السياسي مرهون بهذه الدول! ناهيك عن أنظمة مفككة ينخرها الفساد وعدم الكفاءة من كل جانب، معطوفاً عليها طبيعة مجتمعاتنا التي تعاني من تشتت في الهويات الخاصة بها، وتبعية ثقافية في معظم المجالات، وفوق كل ذلك نخب يهيمن عليها الفكر الليبرالي الغربي في الغالب، فكيف بنا إزاء كل ذلك؟

هناك نماذج لدول أخرى تعامل مع القضايا بسرية شديدة من خلال اتخاذ الإجراءات الصارمة، والتي من الممكن أن تؤدي إلى تطبيق فعلي لمبدأ حظر نشر المعلومات حتى من قبل المواطنين أنفسهم، خصوصاً أثناء الحوادث الخطيرة، من هجمات وغيرها، أو الأحداث الأمنية بالمجمل.

ولعل فرنسا المثال الأبرز في هذا المجال، والتي غالباً ما استندت إلى حالة الطوارئ في فرض عملية تعليم ومراقبة دقيقة عما يُنشر في وسائل الإعلام أو الواقع الإلكتروني: ”يحق للشرطة تفتيش المنازل وأماكن العمل، دون تصريح من النيابة العامة، ويحق للدولة مراقبة الصحف

والإذاعات وقنوات التلفزيون ودور السينما والمسارح، وفرض رقابة على محتواها.<sup>(١)</sup> كذلك حجب المواقع الإلكترونية، وحظر النشر على موقع التواصل الاجتماعي وغيرها من الوسائل التي تتيح للسلطة الفرنسية التعامل مع الموقف. وهناك العديد من الدول الأخرى التي اتخذت الإجراءات ذاتها في التعامل مع ما يجري من أحداث على أراضيها.

خاتمة

ما الذي يمكن أن نفعله إزاء هذه التحديات التي تزداد صعوبة يوماً بعد آخر؟ وكيف يمكن لنا الاستفادة من النماذج المطبقة في الدول الكبرى وغيرها، من أجل تحفيز المواطنين على التعامل بمسؤولية فاعلة مع مبدأ السرية؛ باعتباره ضرورة وحاجة ملحة في الوقت الحالي؟ وهل يمكن لنا بالأصل القيام بذلك؟ لعل هذه هي الأسئلة الأبرز التي تشغّل بنا الآن، ونحن على مشارف الفراغ من كتابة بحثنا ذا!

قد يُنظر للأمر من باب الاستحالة؛ بسبب غياب المنظومة السياسية القوية في بلداننا، والتي تستطيع اتخاذ الخطوات الالزمة بهذا الصدد،

١ - قناة الجزيرة: فرنسا تمدد الطوارئ وتمنع التظاهر.

## ١١٢ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

دون الاهتمام بالأراء التي ستتشكل تلقاء هذه الخطوات، خصوصاً من المجتمع الدولي، وعلى وجه التحديد الولايات المتحدة الأمريكية وتابعها الأوروبية، والتي حتماً ستقوم بتحريك الرأي العام على المستوى الدولي والداخلي من أجل الوقوف بوجه أي خطوة من شأنها المحافظة على أمن المجتمع والدولة على حد سواء، فضلاً عن حركات المقاومة في بلداننا، التي تعاني بالأصل من حالات عزلة مفروضة في الأيام الاعتيادية التي تخلو من الحروب والاعتداءات، مضافاً إلى سيل من التشويه الإعلامي المستمر ضدّها واتهامها بشتى التهم؛ بغية عزلها عن حواضنها الشعبية، كما يحصل حالياً من قبل الإعلام الغربي والعربي تجاه حزب الله وحماس.

هذا من جانب، ومن جانب آخر هناك الحالة الفكرية والثقافية للمجتمع، والتي سبق أن قلنا، إنها مشوّهة بفعل التدخلات الناشئة بينها وبين السردّيات الغربية التي ما زالت تحاول فرض وصايتها على الهوية الخاصة بالمجتمعات، متسلّحة بكثير من الأدوات الثقافية والاقتصادية، وخلف كل ذلك قرار سياسي داعم لها بقوة، من أجل تدعيم هيمتها ووصايتها بدءاً من نمط حياتنا اليومية من مأكل وملبس وصولاً إلى آرائنا السياسية. تسهم هذه المعطيات كأنّها مع غيرها، في خلق هذا التصور عن استحالة إمكانية الوصول إلى حالة مقبولة من الكتمان والحفظ على المعلومات،

بالقدر المتيقن الذي يؤمّن حياة الأفراد والجماعات في بلداننا، من مخاطر التربُص المستمر للعدو، والإقبال المفرط من قبلنا على التوثيق ونشر أي شيء، كأننا في حالة سباق مع الزمن والآخرين. مع كل ما ذُكر آنفًا، يبقى عدم التعامل مع الأمر وأخذ وضعية التفرُّج فقط، هو الأسوأ من الحالات التي ذكرناها، ومن كل المعطيات التي سبق أن تناولناها في توصيف صعوبة الأمر.

إذًا، يجب التحرُّك دون النظر إلى نتائج هذا التحرُّك في الوقت الحالي، والأخذ بالاعتبار أن السماح ببقاء هذا الوضع على ما هو عليه ينذر بعواقب وخيمة تصل إلى حد التهديد الوجودي لمجتمعاتنا الإسلامية، وبالخصوص تلك التي تشكل حاضنة لمقاومة المشاريع الاستعمارية للغرب بأشكالها وصورها كافة. من هنا إذًا، يجب أن نطلق بالعمل، فنأخذ زمام المبادرة خطوة بخطوة، دون أن تدفعنا صعوبة المهمة إلى الشعور باليأس، أو تؤدي بنا النتائج في البداية إلى الإحباط.

ومن الممكن لنا بشكل فعلي وواقعي الاستفادة من التجارب التي مرت بها الدول والأنظمة في سبيل تحصين نفسها قدر الإمكان من خلال الكتمان وحفظ المعلومات بعيداً عن التداول والنشر، والإجراءات التي اتخذتها في سبيل التحفظ على الأحداث التي تقع، والhilولة دون قيام الآخرين بتوثيقها، سواء كانوا مواطنين أو وسائل إعلام. ومن أجل ذلك

## ١٤ السريةُ ضرورةً وجوديَّةً

سنورد بعض التوصيات الخاصة بهذا الصدد:

١. إرادة النظام السياسي أو السلطة في كتمان القضايا الجوهرية والمهمة، والتي غالباً ما تمسُّ الأمن القومي والوطني للدولة، أو أي جانب من شأنه إحداث ضرر جسيم في بنية المجتمع، أو يؤدي بأيِّ شكل من الأشكال إلى تهديده في أمنه. إذَا، فالقرار الخاص بالسرية وعدم إذاعة المعلومات حول مفصل معين أو عدة مفاصل، هو قرار سياسي بالدرجة الأولى، أو ذو منشأ سلطوي، يبدأ من الحكومة وينتهي بـالالتزام الأفراد به.
٢. الخطوة الثانية تبدأ من المشرع القانوني، والذي يُحيل هذه الإرادة السياسية إلى مواد قانونية، تتسم بالوضوح والدقة، من خلال صياغات محددة، تُوضَّح بشكل غير قابل للتأويل والتلاعب، وتبيّن معايير الجُرم وكذلك العقوبات المترتبة على ارتكابه. وهذه القاعدة مهمة وعامة في الصياغات القانونية، وتسهّل من عملية التطبيق والتنفيذ؛ لأنها ستساعد المشرع والناس على حد سواء، في فهم هذه النصوص، ووجه الإلزام فيها.
٣. الغاية الكامنة خلف تحويل هذه الإرادة السياسية من قبل النظام القائم، أو السلطة في الدولة، هو الشفافية، من خلال وضوح المعايير الموضوعة من أجل مسألة السرية، وكونها لا لبس فيها،

وغير قابلة للتلاعب والتحايل من أي جهة كانت. هذه الخطوة تحول دون استبداد النظام، أو تلك السلطة من خلال استغلال هذا الأمر وجعله منطلقاً للتعسُّف ضد الناس، والتلطّي خلفه باعتباره مبرّراً لاتخاذ إجراءات أخرى تضرّب العلاقة التنظيمية بين السلطة والمجتمع؛ إذ قد يكون ذلك مقدمة لالصاق هذه التهمة أو غيرها بكل من هو مخالف للسلطة؛ أي الخروج عن المنحى السري بشكل عام، ما قد يُفضي في نهاية المطاف إلى ممارسة التعسُّف والتضييق... إلخ، وسوها من دلالات الاستبداد، وهذا ما يسيّبه بالطبع عدم وضوح المعايير المحددة، ما إذا كانت هذه المعلومات أو تلك القضايا مشمولة بالكتمان. لذا، فإن تشريع القرار السياسي بضرورة السرية يجب أن يبني قانونيًّا، ووفق قواعد واضحة لا تحتمل عدّة وجوه؛ بغية عدم تركها لأهواء التأويل أو سوى ذلك.

٤. رغم ما يُشاع حول الشعب الأميركي، لناحية تحليه بنسبة عالية من الوعي، وشعوره بالانتماء الوطني، فإن الأمر هنالك مختلف بعض الشيء عن المتعارف عليه عند بقية الشعوب؛ نتيجة غياب التاريخ المشترك، لمواطني الولايات المتحدة الأمريكية، وعدم وجود رابطة روحية متأتية من وحدة حضارية أو عقدية

من الممكن أن تلم شتاتهم، كون المجتمع هناك هو خليط من جنسيات وقوميات متنوعة ومختلفة عن بعضها. بيد أن شعار الحلم الأمريكي، ومسألة الرفاهية المادية وغيرها، ما زالت تؤدي دورها في تعزيز الانتماء، أو ما يمكن أن نسميه الانتماء البراغماتي إلى هذه الأرض. وبالعودة إلى مسألة كون هذا الشعب - بغض النظر عن اختلافه عن بقية الشعوب - مصنفًا ضمن المراتب المتقدمة في مسائلَي الوعي والانتماء، لكنَّ السلطة الأميركيَّة لم ترهن مصير السرية بهذه المسألة، بل عمدت إلى فرضها عبر القوانين التي أقرتها، أو الإجراءات التي أعلنتها الحكومات الأميركيَّة المتعاقبة بهذا الصدد، وهذا بالطبع متأنٌّ من إدراك الإدارة الأميركيَّة، لعدم جدوِّ التعويل على هذه المسائل، في ظل الأجواء المختلطة للثقافات المكوِّنة للمجتمع الأميركي، فضلاً عن الحدود الشبكية والتكنولوجيا المفتوحة مع بقية أجزاء العالم، مما يفضي إلى توهين الشعور بالانتماء، ويحد من منسوب الوعي، أمام الكم الوافد من بقية ثقافات العالم، أو من خلال استغلال الدول والجماعات المناوئة لها، لهذه الوسائل التي أثاحتها هي عبر الاتصالات والتكنولوجيا وغيرها.

٥. يجب الإفساح في المجال أمام هذه القوانين لتمكُّث مددًا

طويلة، مع صرامة في التطبيق والتنفيذ؛ حتى يتسعى لها أخذ حيزها في المجتمع، ورسوخها في ذهنية الناس، وتبليورها بوصفها جزءاً من معرفتهم البديهية عن الأمور التنظيمية، مثل معرفتهم بقوانين المرور على سبيل المثال لا الحصر، وهنا نقصد أبجديات هذه القوانين والقواعد. هذه المسألة مهمة وضرورية؛ لأنها تجعل السرية أكثر فعالية، وتمنحها وجوداً حياً بين الناس، لا مجرد مفهوم عائم في الكتب والإرشادات.

٦. يمكن الاستفادة من نظام (DSMA-Notice) عبر تأسيس هيئة مشتركة تتكون من ممثلين عن الحكومة مع ممثلي وسائل الإعلام الموجودة والعاملة في هذا المجتمع أو ذاك. وعلى غرار النموذج البريطاني، يجري تحديد قواعد عامة وخطوط مفصلية تسير عليها القنوات ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها، مع الأخذ بالاعتبار عند وضع هذه القواعد العامة، مسألة الأحداث والمستجدات التي تحدث بصورة طارئة، والتي تحتاج في المستقبل إلى أكثر من مجرد عمل هذا النظام. لذلك، يجب أن تتطوّي المواد التنظيمية لهذا النظام على مرونة معقولة، تمكّنها من العمل حتى في الظروف والحالات المستحدثة التي قد لا يتم استيعابها إذا كانت النصوص جامدة غير قابلة لأي شكل

من أشكال التطوير أو التحديث، أو هي التي تعطي بالأصل الإذن بالعمل والتصرُّف مع هذه الحالات الاستثنائية.

٧. يجب أن يتزامن هذا العمل، مع التوعية المستمرة بأشكالها كافة، من قبل الجهات المختصة، عبر وسائل الإعلام نفسها وعبر المشاهير والفنانين، واللوحات الإعلانية المنتشرة في أماكن التسويق أو الأماكن العامة، أو تلك التي تكون على جانبي الطرق الخارجية، أو جعل هذا الأمر فقرة ثابتة في البرامج والقنوات بشكل يومي. يضمن ذلك كله عملية رسوخ ذهني من خلال تكرار الفكرة هذه على المتلقى في أغلب الأماكن التي يقصدها، مع إيلاء اهتمام أكثر لهذه الدعايات التوعوية في المجال التعليمي، وبالأخص المدارس الابتدائية، التي من الأجدى أن يجري طباعة منهاج مخصصة لها تُعنى بموضوع السرية والكتمان، ولو بشكل مبسط، يسهل على هذه الأعمار حفظه وتعلمه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى لا بد من استمرار حملات التوعية في المدارس حول ضرورة حفظ المعلومات والابتعاد عن نشر كل شيء، من خلال كل الوسائل المتاحة في هذا الجانب، لا سيما تلك المفضلة لهؤلاء الأطفال.

٨. التوعية الدينية أمر بالغ الأهمية، في مجال تعزيز وترسيخ

مفهوم السرية في مجتمعاتنا؛ نتيجة التأثير الروحي والإيجابي للدين بحد ذاته، بوصفه منقذًا للإنسان من حالة العزلة البدائية التي أعادته إليها الفلسفات الغربية، عقب نجاحها في زرع الفكر المادي والنفعي بشتى الوسائل والأدوات في البلدان الإسلامية. من هنا إذاً، تترسّخ قيمة هذه التوعية، والتي تأتي بالأصل متزامنة مع قضية الشفاء والتداوي من الخلل المعنوي الذي أصاب الإنسان جراء هذه الأفكار، حيث اكتشف الأطباء أن هناك أمراضًا نفسية لا تنجم عمّا عرفوه مسبقاً عن مسببات الأمراض النفسية، ووجدوا أن العلة ناجمة عن خلل في رؤية الإنسان للأشياء وعلى رأسها الكون، ونظرته للحياة بشكلٍ يُفقده معناها ويتجنح به إلى اليأس، وبالتالي تولّد لديه اضطرابات نفسية. لذلك أطلقوا على هذا النوع من المرض اسم المرض الروحي أو المعنوي، وقد اعترفت به منظمة الصحة العالمية

بشكل رسمي ١٩٨٤ م.<sup>(١)</sup>

طائق العلاج بحسب (الجامعة الملكية للأطباء Royal College of Psychiatrists)، التي ركّزت كثيراً على العامل الديني؛ إذ دعت إلى

---

١ - أيمن المصري: الطب الفكري معايير وضوابط، ص ١١.

## ١٢٠ السريةُ ضرورةً وجوديَّةٌ

ممارسة الطقوس الدينية وأداء الصلاة والعبادات والمشاركة في الفعاليات والمناسبات الدينية... إلخ، وممارسة اليغاء والإسهام في أعمال الخير والصفح عن الآخرين وغيرها.<sup>(١)</sup>

ومن الطبيعي أن تتفضّل أمراض كهذه، بسبب شيوخ المذاهب الفكرية وخصوصاً الحسّية منها، والتي أسهمت في تغييب الجوانب الروحية عن الإنسان بالشكل الذي جعله مهترأً من الداخل ومضطرباً دائماً؛ بفعل اعتمادها على المدرك الحسيّ ونفيها لكل ما هو خارج هذا المدرك، وهو أمر أقل ما يقال عنه، إنه غلو يؤدي إلى هذه النتائج.

هذا الأمر الذي انعكس بدوره على علاقة الفرد بمجتمعه، وصيّره في الغالب منعزلاً؛ نتيجة هذه المعطيات وغيرها، والمراد بالعزلة هنا، ليس المعنى الحرفي الذي يتبارد إلى الذهن، وإنما هو الانفصال المصلحي للفرد عن مجتمعه، وارتباطه بالحِيز الذي يشغله فقط، بصرف النظر عمّا قد يؤدي إليه ذلك من نتائج، والتي ستكون وخيمة غالباً على الفرد والمجتمع كله، والذي بدوره ينعكس تلقائياً على الأمان في المستويين القومي والاجتماعي.

إن كل ما تطرّقنا إليه في هذا الصدد يؤكّد على أهمية الدين في مجال

---

١ - أيمن المصري: الطبع الفكري معايير وضوابط، ص. ٢٤-٢٥.

التوعية، ليس لكونه مقتصرًا على هذا الدور الذي سوف يلعبه فحسب، بل لأنّه يؤدي إلى تفعيل الجانب الوقائي بالأصل، من خلال عملية الإنقاذ الروحي التي يوفرها للإنسان، عبر ممارسة الشعائر الدينية على أقل تقدير، ومن ثمّ تنقية المجتمع من المدخلات والفلسفات الغربية التي أدت إلى ذلك كله، التي بدورها تضعف من عملية المسؤولية الفردية تجاه المجتمع في مختلف المواضيع، والتي من ضمنها قضية الكتمان وحفظ المعلومات، بعيداً عن النشر، وتوثيق الأحداث الطارئة والمستجدة، خصوصاً الأمنية منها. يحدث ذلك في حالة افتقاد هذه المسؤولية، وغلبة الأنماط الفردية على الشعور بالانتماء للجماعة.

كل ما أتينا على ذكره من توصيات يندرج في إطار ما يمكن تسميته بالمسؤولية الملقة على النظام السياسي، ومؤسسات الدولة، مضافة إلى الجهات الدينية، والنخب الإعلامية والفنية، من خلال تكامل الأدوار الذي أشرنا إليه بين هذه الجوانب كافة. لكن ماذا عن الفرد؟ ما المسؤولية الملقة على عاتقه، أو ما الذي يجب أن يفعله للإسهام في هذا الموضوع؟ لا يمكن التعويل بالأساس على الفرد كلياً في هذه المسألة أو غيرها؛ بسبب كل ما أشرنا إليه من كون المجتمع يغوص في بركة من المدخلات الآسنة التي تحيله إلى هوية مشوهة، يفقد معها الفرد عمقه الروحي والحضاري، ومن ثمّ صلته بالآخرين كله، وما يتصل به من مسؤولية

تجاه المجتمع وسواه.

هذه المعطيات وغيرها، تجعل من الخطأ في مكان الاعتماد على الفرد، وإثقاله بالتزام كبير، من قبيل السرية والمحافظة على المعلومات. لكن مع كل ذلك، لا بد له من أن يلحظ الجانب التوعوي في شخصيته وما يتفرّع منه، لفائدة الشخصية الأساسية، ولانسحاب هذه الفائدة تلقائيًا على المجتمع، ومنها:

■ الاطلاع المعرفي ، الذي يشمل كل ما هو له صلة بالعلوم السياسية والثقافية والإعلامية، مضافاً إلى المعارف التي توصل الفرد إلى معرفة القواعد المنهجية الواضحة، في تشخيص عدوه، لا مجرد قراءة وتعلّم المناهج التي تقتصر على ذكر المصادر والأمثلة عن العدو، مثل تلك التي تقفز مباشرة إلى تحديد المسمايات، فهذه مما لا تؤدي إلى النتيجة المرجوة.

إن معرفة القواعد مهمة وضرورية، فهي تتيح للفرد التحديد المباشر لأي عدو مستحدث، ولو كان من بيئته الداخلية؛ لأنها تمكّنه من الاطلاع على الخطوات اللازمة في سبيل ذلك، وتجعله أمام معادلة واضحة ودقيقة، وهذا الأمر بدوره يعطي فائدة كبرى في مسألة الحفاظ على المعلومات؛ لأنّه سيتبع هذا المسار ذاتياً، لعلمه بما يمكن أن يؤدي إليه عدم الالتزام بالكتمان، وهذا كلّه مرتبط بمجموع المعرف التي حصلها نتيجة القراءة

والاطلاع؛ إذ تمنحه هذه المعرفة دافعاً مهماً في سبيل تأدية دوره بصفته إنساناً واعياً، ومسئولاً عن التصدي لكل أدوات وأساليب الأعداء، ومن ضمنها الاستفادة من القضايا المتعلقة بإذاعة المعلومات.

■ تقوية الجانب الديني في شخصية الفرد وتمتين علاقته بالله وال تعاليم الإسلامية، بعيداً عن الجو العام، وبالطبع لا نقصد التدين وفق المنظور العلّمانى الذي يحصر التدين في إطار العلاقة الشخصية بين الفرد والله، بل نقصد تنمية الجانبين؛ أي على المستوى الشخصي للفرد، وكذلك المستوى العام كونه جزءاً من الجماعة. لكن التركيز هنا ينصب على المساحة الخاصة به، بغية تعميق هذا التعلق واستلهام المبادئ الدينية بالشكل الصحيح الذي يمكنه من المبادرة التلقائية؛ نتيجة شعوره بالمسؤولية الشرعية تجاه الآخرين في المجالات كافة، والتي منها حفظ المعلومات والالتزام بالسرية كونها باباً من أبواب المحافظة على دماء المسلمين، أو الإسهام في حمايتهم من الأخطار الجسيمة التي من الممكن أن يتعرضوا لها، وهذا كله بالطبع يأتي من تنمية علاقة الفرد بربه وتعاليم دينه.

لا يقتصر الأمر على هذا الحد، بل يتعدّاه إلى كل ما من شأنه أن يدخل فيما ذكرنا، أو من خلال الأدوات والوسائل الأخرى التي تصب في السياق

ذاته؛ أي جعل هذا الفرد مؤمناً حقيقياً، وإنساناً صالحًا يعكس حسَّ المسؤولية تجاه الآخرين والمجتمع بشكل عام.

وفيمَا يتعلَّق بالفصل الخاص بالمقاومة، فهي بالأصل تبني على هيكلية تتضمَّن العديد من العناوين غير المعلنة، وهي بذاتها ملتزمة وفق هذه السياقات بغض النظر عمَّا يتم كشفه أو يطرأ نتيجة الخيانات أو نجاح العدو باختراق الصفوف. فهذا وارد، بل طبيعي؛ بالنظر إلى كثير من الأمثلة، وإلى التطور التقني والقدرة المالية للقوى الكبرى التي تجاهلها المقاومة. لكن ما يهمنا في هذا الجانب هو حاضنة المقاومة التي تشَكِّل البيئة الحامية والمولدة لها، مما يضيِّف أهمية قصوى إلى هذه الفتة بالذات.

ومع ذلك هي جزء من المجتمعات الإسلامية بشكل عام. والأخيرة إذا تقيَّدت بادئًا بكل ما أشرنا إليه في متن هذا الكتاب، فلا بد لها أن تقيُّد أو الالتزام من أن يلقي بظلاله على محيط المقاومة. أما التزام الحاضنة والمقاومة فقط، فهذا يعني أنها تحارب على جبهات عدة لا العدو فقط، بل الجهل الداخلي والمحيط بها على أقل تقدير. وهذا ما يقلل كاهلها بمزيد من الأعباء، ستكون بمعنى عنها، لو كانت هذه المجتمعات مدركة لما تواجهه، وأهمية هذا الموضوع والمواضيع الأخرى المتصلة به في حفظ كيانها وهويتها أمام كل هذه التحديات والأساليب التي يشنُّها العدو بشكل مستمر.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن منظور: لسان العرب، مجموعة محققين، دار المعرفة، القاهرة، لا ط، ١٩٨٠.
- أحمد أمين: كتاب الأخلاق، مؤسسة هنداوي، لا م، لا ط، ٢٠١١.
- إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، مراجعة خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، لا م، لا ط، ٢٠١٨.
- آية الله جعفر السبحاني: التقى مفهومها، حدتها، دليلها، مؤسسة الإمام الصادق الليثي، قم، ٢٠١٠/١٤٢٣ هـ.
- أيمن المصري: الطب الفكري معايير وضوابط، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، لا م، لا ط، لا ت.
- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لا ط، ١٩٢١/١٣٤٠ هـ.
- رجا بهلول: المرأة وأسس الديمقراطية في الفكر النسوي الليبرالي، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، لا ط، ١٩٩٨.
- زينب حسين موسى بو مور: السرائر في ضوء القرآن الكريم: دراسة

## ١٦٦ السريةُ ضرورةً وجوبيةً

موضووعية، (أطروحة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، قطاع غزة، لا ط، ٢٠٠٩.

- سعاد عبود وجمال بن سليمان: المسؤولية الاجتماعية وأهميتها في تعزيز قيم المواطنة في ضوء إدارة الأعمال والمؤسسات، مجلة تنمية الموارد البشرية للدراسات والأبحاث، المركز الديمقراطي العربي، برلين، العدد الأول، ٢٠١٨ م.
- السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، لا ط، ١٩٩٧ م ١٤١٧ هـ.
- شهريار زرشناس: الليبرالية، ترجمة حسن الصرف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، سلسلة مصطلحات معاصرة، لا ط، ٢٠١٧ م.
- علي أبو البصل: السرية في الفقه الإسلامي، مجلة جامعة الطائف، المجلد ١، العدد ١، ٢٠٠٩ .
- علي بن محمد الليثي الواسطي: عيون المواعظ والحكم، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجندی، دار الحديث، قم، لا ط، ١٩٩٧ م.
- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا ط، ١٩٨٣ م ١٤٠٣ هـ.
- الواقع الإلكتروني

المصادر والمراجع ١٦٧

• فلاديمير لينين: **الأخلاق والأخلاق الشيوعية**، د.ت، تاريخ الاطلاع

(٢٠٢٥-٤)، على الرابط الآتي:

<https://revsoc.me/> /33681/marxism/30900

• خالد عبد العزيز فرج: **أساس الليبرالية الخلقية**، د.ت، تاريخ الاطلاع

(٢٠٢٥-٤)، على الرابط الآتي:

<https://maarefhekmiya.org/%D8%A3%D8%B3%D8%A7%D8%B3-%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%84%D9%84%D9%9>

84%D8%A3%%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%9

/8A%82%D9%84%D8%A7%D9%D8%AE%D9

• الرابطة الأممية للعمال: **المؤتمرات العالمية الأربع الأولى**

للأممية الشيوعية، (٢٠٢٤-٢-١٤)، تاريخ

الاطلاع (٢٠٢٥-٤)، على الرابط الآتي:

<https://litci.org/> /17-%D8%A7%D9%85%D8%A4%D8%A%84%D9%arab/

85%D8%AA-%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AA-%D8%A7%D9%85%D8%AA-%D8%A7%D9%

8A%D8%AA-%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AA-%D8%A7%D9%85%D8%AA-%D8%A7%D9%

84%D8%A3%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%

88%D8%A3%D9%84%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%84%D8%AA-%D8%A7%D9%

/84%89-%D9%84%D9%88%D9

- شبكة المعارف الإسلامية الثقافية: الدعوةُ السريةُ ودعَوةُ الأقربين،  
دَت، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-٤-٢١)، على الرابط الآتي:  
[www.almaaref.org/maarefdetails.php?id=15112](https://www.almaaref.org/maarefdetails.php?id=15112)
- بي بي سي عربي، فيسبوك وتويتر: أخفقنا في منع التدخل في  
الانتخابات الأمريكية، (٢٠١٨-٩-٦)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٢-٤-٤-٢٢)،  
على الرابط الآتي: <https://www.bbc.com/arabic/>) science-and-tech-45429533
- موقع الجزيرة: ”سكريبل.. عميل ”سمم“ العلاقات البريطانية  
الروسية“، (٢٠١٨-٣-١٥)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-٥-١٤)، على  
الرابط الآتي: <https://www.aljazeera.net/encyclopedia/28a%d8%a8%83%d8%b1%d9%d8%b3%d9%15/3/01885%84%d8%b9%d9%84-%d8%a7%d9%%d8%a7%d98a-%84%d8%b0%d9%84-%d8%a7%d9%8a%d9%%d984%d8%b9%d9%85-%d8%a7%d9%85%d9%%d8%b3%d982%d8%a7%d8%aa%84%d8%a7%d9>
- قناة الجزيرة: فرنسا تمدد الطوارئ وتمنع التظاهر: (٢٠١٥-١١-٢١)،  
تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-٥-١٨)، على الرابط الآتي: <https://www.aljazeera.net/news/201586%81%D8%B1%D9%D9%/21/11/aljazeera.net/news/2015>

## المصادر والمراجع ١٦٩

85%D8%AF%D8%AF-%%D8%B3%D8%A7-%D8%AA%D9

88%D8%A7%D8%B1%84%D8%B7%D9%%D8%A7%D9

86%D8%B9-%85%D9%88%D8%AA%D9%%D8%A6-%D9

87%84%D8%AA%D8%B8%D8%A7%D9%-%D8%A7%D9

%D8%B1

- موفق علي عبيد: سرية التحقيقات الجزائية وحقوق الدفاع، (٦-٣-٢٠١٦)، تاريخ الاطلاع (٤-٤-٢٠٢٥)، على الرابط الآتي:  
<https://almerja.com/reading.php?idm=4000>

- قناة الجزيرة: كشف تفاصيل تسميم الجاسوس الروسي ببريطانيا:

(٢٠٢٥-٥-١٤)، تاريخ الاطلاع (٢٠١٨-٣-٢٩)، على الرابط الآتي:

<https://www.google.com/amp/s/www.aljazeera.net/amp/25%25D8%2584%25D9%25A7%25D8/29/3/news/20182%25D8%2588%25D9%25B3%25D8%25A7%AC%25D82%25D9%25B1%25D8%2584%25D9%25A7%5B3-%25D82%25D9%2587%258A-%25D9%25D9%25B3%25D8%588%25D8%25A8%2585-%25D8%25AC%25D9%25D8%58825D9%25A7%25B2-%25D8%25D8%25A7%25BA%25D825D8%25B5%25D8%25B9%25D8%25A3%25D8%2584%>

١٣. السرية ضرورة وجوبية

258A%25D9%2581%25A8-%25D9%25D8%25A7%

## المصادر الأجنبية

- C. Cadwalladr & E.Graham-Harrison: (2018, March 17). Revealed: 50 million Facebook profiles harvested for Cambridge Analytica in major data breach. The Guardian. <https://www.theguardian.com/news/2018/mar/17/cambridge-analytica-facebook-influence-us-election>
- M. Wills, (2017, June 23). How the Espionage Act became a tool of repression. JSTOR Daily. <https://daily.jstor.org/how-the-espionage-act-became-a-tool-of-repression/>
- Project Censored: (n.d.). The Grenada invasion: A classic case of censorship. Project Censored. <https://www.projectcensored.org/12-the-grenada-invasion-a-classic-case-of-censorship/>
- doing\_wp\_cron=1746536174.8835699558258056640625
- Human Rights Watch: (1991). Freedom of Expression and the War. Retrieved from <https://www.hrw.org/reports/1991/us3>
- Federation of American Scientists: (2004, October 12).

Secrecy News: Congress supports media blackout on military coffins. Project on Government Secrecy. <https://sgp.fas.org/news/secrecy/2004101204/10/.html>)

- A. Shapiro (2009, February 11). Ban on media coverage of military coffins revisited. NPR. <https://www.npr.org/2009/10/05/97542/11/02//ban-on-media-coverage-of-military-coffins-revisited>
- Max Planck Institute for Chemistry: (n.d.). Die Entdeckung der Kernspaltung. <https://www.mpic.de/4469988/die-entdeckung-der-kernspaltung>)
- Matt Garrow: “10 Fascinating Facts About The Manhattan Project.” Listverse, June 7, 2019, <https://listverse.com/2019/07/06/fascinating-facts-about-the-manhattan-project/>.
- Defence and Security Media : Advisory Committee (DSMA). About the DSMA Committee. Retrieved from <https://www.dsma.uk/about/>
- Watt, Nicholas: “David Cameron Makes Veiled Threat to

Media over NSA and GCHQ Leaks.” The Guardian, 28 Oct. 2013, <https://www.theguardian.com/world/2013/oct/28/david-cameron-nsa-threat-newspapers-guardian-snowden>.

- B. Wray: (2018, May 10). SpinWatch publish confidential media ‘D-notices’ on the Skripal case. CommonSpace. <https://sourcenews.scot/analysis/spinwatch-publish-confidential-media-d-notices-on-the-skripal-case/>
- “Official Secrets Act.” Hansard, UK Parliament, 25 Feb. 1998, <https://hansard.parliament.uk/commons/199825-02-/debates/7b19f6e51-a31456-f-9ee0-b60cc747045f/OfficialSecretsAct>.





# الفهرس



| ٥ | مقدمة

## الفَصْلُ الْأَوَّلُ ٦١

مفهوم السرية والمفاهيم المتصلة

### | ٩ | المبحث الأول: مفهوم السرية

المبحث الثاني: ما السرية التي نقصدُها، في التفريق بينها وبين

| ١٣ | التقى

## الفَصْلُ الثَّانِي ٦٢

الأبعاد الناجمة عن السرية والكتمان

### | ٢٣ | المبحث الأول: البعد الشرعي

### | ٢٤ | المبحث الثاني: البعد الخلقي

### | ٥٤ | المبحث الثالث: البعد السياسي

## | ٦٨ | المبحث الرابع: البعد التوعوي: السرية مسؤولية تجاه المجتمع



## الفصلُ الثالثُ

### ٧٩ | نماذجٌ من حفاظِ الأنظمةِ الغربيَّةِ على السرِّيَّةِ

| ٨٣ | المبحثُ الأوَّلُ: أمريكا

| ٩٦ | المبحثُ الثاني: بريطانيا

١١١ | خاتمة

١٢٥ | المصادر والمراجع





## مَرْكُزُ بِرَاثَةِ الْدِرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، الاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكل في مجموعها الحراك الاجتماعي والأنساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصاً في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، الاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعياً للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقديمه في أبعاد الإنسانية المختلفة.

## عن هذا الكتاب



اهتمَّت الدولُ الكبُرِيَّ في موضوع السرِّيَّة اهتماماً شديداً، ما ينمُّ عن الأخطار الكبُرِيَّة التي يمكن أن تقعَ عليها في حال عدم إيلاء هذا الجانب الأهميَّة المطلوبة. وقد تمثُّل ذلك من خلال استراتيجيات وقوانين متعددة، مضافاً إلى الإجراءات والقرارات المتَّخذة في المسائل الطارئة التي تحدث. إنَّ هذا الحرص الشديد من قِبَل هذه الأنظمة الغربيَّة يعبُّر بوضوح عن أنَّ السرِّيَّة الْيَوْمَ ليست ترقَّاً، وإنَّما هي مسار ضروريٌّ لا مفرَّ منه بحكم الواقع الذي نعيشه، خاصةً في ظلِّ تفشيٍّ هستيريٍّ للنشر بين مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي.

لقد أولى الإسلام عنايةً واضحة بمبدأ السرِّيَّة، فهو ليس مفهوماً طارئاً أو مستوراً من تجارب الدول الحديثة، وإنَّما هو امتداد لتعاليم قرآنية ونبوية شددَ عليها أهل البيت عليه السلام، الذين رأوا في حفظ السرِّ أحد أهم عناصر صيانة الجماعة، وحمايتها من الأخطار. فقد جعلوا من السرِّيَّة ركيزةً أساساً في تنظيم العلاقة داخل الجماعة، ولا سيَّما في الظروف السياسية والاجتماعية التي مرَّوا بها؛ حيث نبه الإمام الصادق عليه السلام إلى خطورة كشف الخصوصيات التي قد تضرُّ بالجماعة، فقال: «ما قتلنا من أذاع حدثنا قتل خطأ، ولكن قتلنا قتل عمد».

ومن هنا كانت التقيَّة أحد أبرز التطبيقات الشرعية للسرِّيَّة، لا بمعنى الخوف أو التراجع، بل بوصفها آلية لحماية النفس والمجتمع من الظلم والاضطهاد، وضمان استمرار الرسالة بأقل قدر من الخسائر. وقد وجَّه الأنْمَة شيعتهم إلى التخلِّي بهذا الانضباط الحُلُقِي، وهو ما يتطلَّب وعيًّا كبيراً بما يجب إظهاره وما يجب ستره.



مركز زراثة للدراسات والبحوث  
بيروت - لبنان